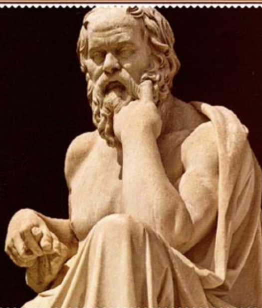
أعلام الفلسفة في الشرق والغرب

د. محمد ممدوح

سقراط
شهيد الكلمة



مكتبة الدار العربية للكتاب

أعلام الفلسفة في الشرق والغرب

سقراط
شهيد الكلمة

عبدالمجيد، محمد ممدوح.

سقراط شهيد الكلمة/ محمد ممدوح عبدالمجيد .- ط1 .- القاهرة:
مكتبة الدار العربية للكتاب، 2018.

112 ص؛ 20 سم. -(أعلام الفلسفة في الشرق والغرب).

تدمك: 3 - 749 - 293 - 977 - 978

1- الفلاسفة اليونانيون.

2- سقراط، 399-469 ق.م.

أ- العنوان. 921.1

رقم الإيداع: 10247 /2018

©

مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2018م

أعلام الفلسفة في الشرق والغرب

د. محمــــد ممــدوح

ســــــقراط
شـــهيد الكـــلمة



مكتبة الدار العربية للكتاب

إهداء

إلى شباب الوطن العربي..

ليعيدوا مبادئ وقيم سقراط من جديد..

تساءل الكثيرون - ولا يزالون: لِمَ الفلسفة؟!

والحقيقة أن إجابة هذا التساؤل تكمن في السؤال نفسه!.. ذلك أن العقل الإنساني قد فُطر على التساؤل؛ ومن ثمّ فهو قادر على محاولة الإجابة عنها.. من هذه التساؤلات: ما حقيقة الوجود ككل، وما حقيقة وجود الإنسان، وحقيقة هذا العالم الطبيعي بكل ما فيه من أشياء وكائنات، وعلة هذا الوجود والموجودات ومصيرها... إلى آخر هذه التساؤلات الحائرة والمعلقة.

وعلى الرغم مما قامت به الأديان من خلال كتبها المقدسة من تقديم إجابات واضحة عن هذه التساؤلات، إلا أنه ما زالت لدى الإنسان بقية منها حول حقيقة نفسه، وكيفية تكوين المجتمع الإنساني الناجح القادر على صنع التقدم واستدامته، وشكل الفنون والآداب، وطبيعة الأخلاق المناسبة لكل عصر.. وهذا هو الدور المنوط بفلاسفة كل عصر.

ويخطئ من يظن أن دور الفلسفة قد تضاءل في عصر العلم لأنه ببساطة لا علم بلا فلسفة؛ فالتقدم العلمي مرهون بوجود علماء يملكون عقليات فلسفية قادرة على تقديم الفروض العقلية الخلاقة لحل المشكلات الناتجة عن التطورات العلمية بصورتها التراكمية التقليدية.

ومن هنا تأتي أهمية أن نفتح المجال أمام شبابنا للقراءة الفلسفية؛ لأن الفلسفة هي ببساطة علم «إعمال العقل» فهي التي تكسب هؤلاء الشباب القدرة على التفكير العقلي المستقل كما تكسبهم القدرة على الحوار الإيجابي

وتقبل الرأي والرأي الآخر؛ ومن ثمّ ينشـأون على عدم التعصب والتسامح مع الآراء والأفكار المخالفة، كما أنها هي التي تجعلهم قادرين بعقولهم المتفتحة على الإبداع في كل مجالات الحياة علمية كانت أو عملية.

إن من شأن هذه السلسلة الفلسفية أن تعرض للمفاهيم الداعية إلى كل هذه القيم الإيجابية، وإلى الفلاسـفة الذين شـاركوا في صنعها عبر تاريخ البشـرية الطويـل، من دون أن نميز فيها بين فيلسـوف عربي أو غربي.. فتاريخ الفلسـفة تأثر فيه اللاحق بالسابق دومًا.

إن الفلاسـفة يمثلون طليعة النخبة المبدعة القادرة على بلورة ثقافة العصر الذي يعيشـونه وإدراك صورتها العامة، مع كشف طبيعة التطور الذي تتجه إليه البشـرية فيما بعد، وهـم أيضًا الذين يحـددون صورة هذا التطـور وآلياته؛ ولا ينبغي أن نعجب لذلك، فالحقيقة أن الفلاسـفة برؤاهم الفلسفية المتجددة هم مـن نقلوا البشـر دومًا بأفكارهم ومناهجهـم ومذاهبهم الفلسـفية الجديدة من عصـر إلى عصـر، ومن صورة معينة مـن التقدم إلى صورة أخـرى أكثر تقدمًا؛ لقد كانت صورة الفلسـفة والعلم في العصر اليوناني ماثلة في كتابات سـقراط وأفلاطـون وأرسـطو ، كمـا كانت أفـكار ورؤى بيكـون وديـكارت المنهجية والفلسـفية هي التي نقلت الأوربيين من عصور سُـميت بالعصور المظلمة إلى عصر الأنوار والتقدم الفلسـفي والعلمي -في العصر الحديث. وهذا هو نفسه ما حدث في الحضارة العربية الإسـلامية إذ لم تتبلور صورتها في صنع التقدم للبشـر أجمعيـن إلا على يد الفلاسـفة والعلماء المسـلمين الذيـن نجحوا في التحول من عصر النقل عن الآخرين إلى عصر الإبداع الفلسـفي والعلمي غير المسـبوق بدافع من دينهم الاسـلامي الذي حضهم على إبداع الجديد وارتياد كل مجالات الحياة وآفاقها.

إن ثمة علاقة لا تنفصم بين تأملات فلاسفة العصر الحالي وعلمائه؛ فقضايا التقدم الإنساني وتحدياتها المتتالية والمتنامية يتشارك الآن في تأملها ووضع الحلول المناسبة لها الفلاسفة والعلماء على حد سواء مثل قضايا: البيئة وأخلاقيات البحث العلمي، ومعالجة المشكلات الناجمة عن التطورات العلمية في مجالات الاستنساخ وزرع الأعضاء والهندسة الوراثية وغيرها من مجالات البحث العلمي بما تثيره

من مشكلات مستحدثة.

ولعل ذلك هو ما دعا إلى نشر هذه السلسلة من الكتب الفلسفية المبسطة للشباب العربي الذي تبني عليه أمتنا الآمال الكبار في رفع شأن الأمة عاليًا، وإعادة دورها الريادي في الإسهام في بناء الحضارة الإنسانية الواحدة التي يتحلى فيها البشر بقيم الحداثة والمحبة والسلام والتسامح والشعور بضرورة الأخوة العالمية في كل ما هو خير والابتعاد عن الصراعات والحروب بما تجلبه على الجميع من خراب وويلات وآلام..

***

مقدمة

تُبنى حضارات الأمم والشعوب على قدر عطاءات أبنائها عقليًا وفلسفيًا في المقام الأول، ثم علميًا وعمليًا في المقام الثاني، وعادة ما تمتاز بعض الشعوب ببعض بنيها الذين أثروا حضارتها وبنوا مجدها وشيدوا فخارها، ليصبحوا موطن العز والافتخار لدى أبناء الإنسانية جميعًا بحكم ما أضفوه من نفع لا يمحو الدهر أثره، لا لأوطانهم فحسب، ولكن للإنسانية قاطبة.

على رأس هؤلاء يأتي سقراط، ذلك الرجل الذي ساهم فكره في صنع حضارة إنسانية رفيعة المستوى، حضارة تهتم بالجوهر لا بالشكل، بالمحتوى لا بالقشريات الظاهرة، حضارة تبني الإنسان بحق، تبني روحه ونفسه وداخله، تقيمه على أسس راسخة من المعرفة والعلم واليقين، تهدم ما بداخله من أصنام الجهل وعبادة السلف، إنه بناء روحي ومعرفي فريد. قاد سقراط تلك المسيرة بعكس الرياح، فقابل هجومًا عنيفًا من السادة والنبلاء الذين قادوه في النهاية إلى المحاكمة، ولم يكتفوا بذلك فقط، وإنما ظلوا يتابعون تلك القضية حتى استصدروا ضده حكمًا بالإعدام.

لقد مثلت فلسفة سقراط ثورة تصحيحية شاملة في قلب عاصمة الفكر أثينا، جاءت فلسفته منقبة عن الفضيلة في مضمونها وإطارها الصحيح، باحثة عن القيم الحقيقية في جوهرها ومنبعها الأصيل، متابعًا ذلك بطريقة قد تبدو غريبة إلى حدٍّ كبير، إنه يسأل عن قيمة معينة، ثم يتلقى الإجابات حولها ليفرغ

الذهـن مما علـق به مـن معلومات غيـر صحيحة حول تلـك القيمة، ثـم يُفند تلـك الإجابات كافـة ليثبت خطئها من ناحيـة، وليولد الحقيقـة الكامنة خلف القيمة في نفوس المسـتمعين من ناحية أخـرى، وهذه الطريقة هي التي عُرفت "بالتهكـم والتوليد"، اتبعها سـقراط وصولًا إلى الحقائق وجواهر الأمور في ثورية منقطعة النظير.

ومـا بيـن منهج سـقراط فـي المعرفـة، ورأيـه فـي الفضيلة، يكمـن جوهر الإشـكالات المثارة حوله، فما أُقتيد إلى المحاكمة إلا بسبب آرائه تلك، فكان شـهيدًا للكلمة بحق، شـهيدًا للـرأي الحـر، وإن كانت أثينا ذاتها قد اشـتهرت بالحريـة والديمقراطيـة، إلا أنها قد ضاقت بسـقراط ذرعًـا فأغلقت في وجهه بـاب الحرية وقدمته إلـى المحاكمة باسـم الديمقراطية، لتقدم شـهيدًا للرأي، شهيدًا للكلمة، من أوائل الشهداء في التاريخ. لقد حوكم سقراط بسبب آرائه، ونُفـذ فيـه الحكم بالإعدام بسـبب طاعته للقانـون، فقد كان يمكنـه الفرار بعد المحاكمة من حكم ظالم ومُسيَّس، ولكنه لم يفعل.. إنه أبى أن يعصي القانون رغـم افترائـه عليه.. أبـى إلا طاعة القانون وسـط قوم يعصون اللـه، ويعصون الضميـر.. ويضربون بالقيم كافة عُرض الحائط، لتتجلـى لنا الصورة الحقيقية لسقراط.. ذالكم الرجل الذي عاش لمبدأ ومات عليه، مارس مبادئه في حياته العمليـة بمثـل ما تحدث بها نظريًـا.. ليمكننا القول إن رجولة سـقراط ومبادئه همـا اللـذان قتـلاه قبل أن تحكـم عليه المحكمـة بالموت، وذاك هـو ما صنع لسقراط الخلود أبد الدهر.

والأعجب من ذلك أن سقراط لم يكتب عن فلسفته شيئًا، لم يترك لنا كلمة واحدة بأسلوبه، ولكنه كُتب في القلوب بماء الخلود، لم يترك سقراط نصوصًا كثيرة، بل إن إجمالي ما قاله لا يتعدى الكتاب الواحد، ولكن حول هذا الكتاب

الواحد تعددت الكتب، فمن مُفسر، ومن شارح، ومن مؤول، كلٌّ يحاول أن يقدم سقراط من زاويته، كل يحاول فهم سقراط، لكن يبقى سقراط في النهاية هو الشهيد الأعظم للكلمة في تاريخ الإنسانية، هو الرجل الذي قتلته طاعة القانون، الرجل الذي عاش لمبدأ فقتله، ذالكم هو سقراط.

«المؤلف»

أولاً: الخلفية التاريخية

في بيئة ساحرة.. حباها الله بالسحر كله.. عجيبة.. أشد عجبًا من تلك الروايات الجذابة التي قصتها شهرزاد في حكاوي ألف ليلة وليلة.. بيئة لا تشبع منها العيون، ولا تمل منها النفوس، إنها تمثل النقاء النفسي إلى أقصى حد، تمثل الأريحية والطمأنينة إلى أبعد مدى، بيئة في حاجة إلى شهرزاد لتقص علينا من وصفها، ففي البداية لا بد وأن تجتاز مضايق جزيرة سيلاميس، ثم تنزل إلى الشاطئ لترى تلال أتيكا حتى تشعر بما شعر به مستمعو يوربيدس عندما قال: "في سيلاميس الزاخرة بزبد البحر والأمواج المتلاطمة، الحافلة بطنين النحل، استقر تلامون الشيخ بعد ترحال طويل منذ بعيد، على عرش البحار متطلعًا إلى التلال المحملة بأشجار الزيتون مأخوذًا، حيث نبتت لأول مرة فاكهة العذراء أتينا الرمادية البراقة"..

والمتطلع إلى بلاد اليونان يجد أن الطبيعة قد أرادت لها السحر المطلق، والجمال المطلق، ذاك الجمال الذي يسر الناظرين، ولا تشبع منه الأعين، فقد كان إقليم أتيكا في مجموعه إقليمًا جبليًا تتخلله الشعاب الجبلية التي تقسمه إلى أربعة سهول محصورة بين الجبال، هي سهل اليوسيس Eleusis في الغرب ويواجه جزيرة سيلاميس، ثم سهل كيفيسوس kephisus الذي يرويه نهرا كيفيسوس والليسوس وتقع به مدينة أثينا، وهو أكبر السهول الأربعة مساحة، ثم سهل ميسوجيا Mesogaea ومعناه الأراضي المتوسطة لأنها تقع بين جبلي

هيتيوس ونتليكوس، ثم يأتي أخيرًا سهل الماراثون الذي يقع في الشرق ويطل على بحر يوبويا وهو أصغر السهول مساحة.

وهكذا قسمت الطبيعة تضاريس أتيكا إلى جبال وسهول وسواحل، مما أضفى عليها سحرًا وجمالًا.

وفرضت تلك البيئة الجغرافية، مناخًا بعينه على أثينا، فقد كانت أثينا من أكثر بلاد اليونان جفافًا، فهي قليلة المطر في معظم أيام السنة، وقلة المطر هذه فرضت عليها شيئين متلازمين..

الأول: الاضطرار إلى استيراد القمح من مصر، حيث كانت مصر سلة وصومعة للغلال في العالم القديم، وحيث الحضارة المصرية الضاربة في أعماق التاريخ وجذور الماضي.

الثاني: عدم مناسبة هذا المناخ لزراعة كل المحاصيل، وإنما اقتصرت أثينا في غالب زراعتها على محصولي الزيتون والكروم، فقد كان الزيتون يُزرع بصفة أساسية، حيث سهولة زراعته، ومتعة حصاده، إنه ذو تاريخ متأصل في بلاد اليونان، ومن ثمّ فإن القضاء على مزرعة زيتون كان خسارة فادحة، بل خسارة لا تعادلها خسارة تحطيم حقل من القمح، فليس الضرر في ذلك خسارة دخل سنة فحسب، بل هو خسارة رأس المال أيضًا، وقد كتب سوفوكليس في سنة 406 ق.م، وبعد أن دام احتلال العدو للبلاد سبع سنوات متوالية، فوصف الزيتون بأنه "الخالد الذي لا ينهزم"، مذكرًا سامعيه بأن الزيتون المقدس على الأكروبول قد عاد بعد أن ذهب الفرس عن أثينا.

هذا التفسير للبيئة الجغرافية هو الذي يفسر لنا بعض جوانب الزهد السقراطي، وهو الذي يفسر لنا طبيعة بساطة سقراط، تلك البساطة التي كانت سمة عامة عند اليونانيين.

أيضًا هذه البيئة الجغرافية القاسية هي التي فرضت طابع الجدية على سقراط، وهي التي أكسبته خشونة العيش، والقدرة على التزام حدّ الكفاف، ذاك الحد الذي يحفظ فقط بقاء الروح في الجسد.

أما من الناحية السياسية فقد نشأت أثينا بسرعة، وأصبحت خلال ردح قليل من الزمن بارزة وقوية لدرجة تمكنت فيها من زعامة العالم الهليني في نزاعه مع الفرس، ذاك الذي عُد في النهاية بمثابة حياة أو موت، وأصبحت أثينا بعد الانتصار على الفرس المدينة الرئيسية، أو بتعبير أكثر دقة أصبحت دولة المدينة الرئيسية في العالم الهليني فيما يقول سارتون: "وعندما نفكر في تلك الحضارة فإننا نفكر في معظم الأحيان في أثينا، ولفظتا أثينا واليونان تكادان تُستعملان الواحدة للدلالة على الأخرى في ذكرياتنا المفعمة بعرفان الجميل".

المزاج الأثيني:

في ظل هذا الجو السياسي الذي تغزوه الاضطرابات من كل ناحية، كان هناك سمة عامة يتمتع بها الأثينيون، إنها سمة ذات مذاق خاص اسمها "الحرية"، فقد كان المواطن الأثيني يشعر بعزة نفس لا مثيل لها، تلك العزة كانت تُخيل له أنه سيد هذا الكون، وسيد هذا العالم، وكان لديهم إحساس بالسيادة المطلقة إذ لا سيد لهم، وفي هذا يقول إسيخولوس على لسان المجموعة في تمثيلية "الفرس": "إن الأثينيين لا سيد لهم".

ولا يخفى على أحد أيضًا أن تلك الحرية السياسية، فرضت رقابة صارمة على المحاكم والقوانين، لاستكمال منظومة الحرية، وحيث كانت أثينا منارة للفقهاء ومصدر إلهام للقاصدين: "أضف إلى ذلك هؤلاء الفقهاء الذين كانوا يفسرون القوانين الأثينية المختلفة ويدرسون ما لليونان على اختلاف

أجناسهم من رأي في القوانين ويلقون أمام المحاكم الأثينية من خطب الدفاع ما لا نزال نعجب به إلى الآن، وعلى الجملة فقد كان اليوناني يقصد أثينا كما يقصد الشرقي الآن باريس، إلا أن لباريس خصومًا تعدلها وقد تفوقها في بعض ضروب العلم، أما أثينا فلم يكن لها عدل ولا نظير".

حقًّا، لقد بلغت الديمقراطية الأثينية أوجها عندما فرضت الرقابة على القوانين فأعطت كل مواطن مهمة الطعن في أي قانون يرى فيه مخالفة للدستور، فيوقف العمل بهذا القانون فورًا حتى تقضي المحكمة في شأنه، فيحاكم القانون كما يحاكم الأفراد، وللمحكمة الحق في أن تقضي بإلغائه، فالقانون يخضع للدستور والموظف يخضع للقانون، وهذا هو مبدأ سيادة القانون كاملًا.

والشيء الذي يستحق التقدير حقًّا، أن الأثينيين لم يكونوا ليفرقوا بين طاعة القانون والحرية، فالمزاج الأثيني كان يعتبر الحرية وطاعة القانون صنوان وليسا ضدان، وتاليًا فهو السيد المطاع الذي لا يتعارض مع الحرية: "فمع أن الأثينيين كانوا أصحاب السيادة تحت قبة السماء، إلا أنهم كانوا تحت سيادة القانون على الأرض".

أما على المستوى الفكري والفلسفي فقد عاصر سقراط السوفسطائيين، والبعض يغالي بالقول: "إنه لولا السوفسطائيون ما ظهر سقراط"، وهؤلاء أغفلوا تمامًا بقية الجوانب التي صنعت شخصية سقراط من جهة، وصنعت فكره وفلسفته من جهة أخرى.

لقد ظهر السوفسطائيون في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، عقب انتصار أثينا العظيم على الفرس في موقعة سيلاميس البحرية عام

(480 ق.م)، وفرضت الديمقراطية سيطرتها على ربوع أثينا، مما ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه أمام طائفة من معلمي البيان سموا أنفسهم بالسوفسطائيين، أي أن الديمقراطية الأثينية فتحت أبوابها للحرية الفكرية التي تزعمها أنصار هذه المدرسة.

وكلمة Sophostos باليونانية مشتقة من كلمة Sophos وتعني الحكيم، وقد أطلقها بندار قديمًا على طائفة الشعراء، وأطلقها يوربيدس على طائفة الموسيقيين، كما أطلقها أبقراط على الفلاسفة الطبيعيين، كما سبق وأن أُطلقت على الحكماء السبعة.

إذن يمكننا القول إنه لولا تلك المساحة الديمقراطية التي انفتحت لها أبواب أثينا، ما كان للفن السوفسطائي أن يظهر؛ إذ إنه ظهر لتلبية حاجة وسد فراغ، لمواكبة الحياة الجديدة.

أيضًا كان من أهم عوامل ظهور السوفسطائيين سيادة الروح الفردية في أثينا باعتبار الفرد هو سيد هذا الكون، وباعتبار كل شيء قائمًا به، فجاء السوفسطائيون لينموا هذه النزعة الفردية، ثم كان للنظام القضائي في أثينا أثره البالغ على نشأة السوفسطائيين، إذ فرضت الديمقراطية نظامًا قضائيًّا يسمح للخصمين بالوقوف أمام القضاء والدفاع عن موقفيهما، وغالبًا ما كانت المحكمة تتأثر بالبلاغة والخطابة، وتاليًا يصبح النصر حليفًا للأبلغ حجة والألحن قولًا حتى ولو كان ظالمًا، ولعل تلك النقطة بالذات هي التي شغلت الجانب الأكبر من فكر سقراط.

لقد هبطت الخطابة من رقيها وقوتها في التأثير لإحقاق الحق، إلى مستوى الجدل والدجل، ذلك أنها غرست في الناس كيفية قلب الحق باطلًا والباطل

حقًّا، ثم كيف لجمعية نيابية تريد من المحامي إشباع حاسة السمع فقط لا غير، وكيف لبلد ينشد الفضيلة والتقدم، أن يجعل من ذاته عبدًا لجهال لا يدرون شيئًا عن أمر أنفسهم، فضلًا عن أمر الدولة.

لكن يبقى التساؤل الآن، هل كانت السوفسطائية كلها سلبيات تستوجب النقد أينما ولَّت وجهها شطر أي فكرة، أم هي على النقيض من ذلك تستحق منا ثناءً جميلًا لدرجة أن نطلق على عصرهم اسم "عصر التنوير"، كما فعل الدكتور عبد الرحمن بدوي عندما قال: "يلاحظ أن حركة السوفسطائيين أقرب شبهًا بالقرن الثامن عشر منها بعصر النهضة، فكلا العصرين، ونعني بهما القرن الخامس قبل الميلاد بالنسبة للحضارة اليونانية والقرن الثامن عشر بعد الميلاد بالنسبة للحضارة الأوروبية، نقول إن هذين القرنين يتصفان بصفات متشابهة، وهذه الصفات تتلخص في كلمة واحدة هي التنوير، فإن خصائص نزعة التنوير هي أولًا: الإيمان بالتقدم المستمر نحو الغاية الأصيلة للإنسانية، وثانيًا: جعل العقل الحكم المطلق في كل شيء، وثالثًا: إخضاع كل العقائد والتقاليد الموروثة لحكم العقل، ورابعًا: النزعة الفردية التي تجعل من الفرد من حيث حريته واستقلاله الأساس لكل تقويم، سواء أكان ذلك في الفن أم في الأخلاق أم في العلم أم في الدين، وهذه الخصائص كلها واضحة في كلا القرنين المتوافقين، مما يدفعنا إلى القول بأن قرن السوفسطائية هو قرن التنوير في الحضارة اليونانية.

نعم، هم استخدموا منهج صناعة التنوير، لكن غايتهم لم تكن هي التنوير، وإنما كانت شيئًا آخر تمامًا، وهو الذي أثار سقراط ضدهم، بل إنهم هم الذين ألهموا سقراط بعضًا من مبادئه، لا لأنهم أصحاب مبدأ، ولكن لأنهم داسوا بأقدامهم جميع المبادئ، مما دفع سقراط إلى محاولة إحيائها.

إن ظهور السوفسطائيين، ألهم سقراط الربط بين المنهج والغاية، وألهمه البحث في جواهر الأمور، وألهمه المبادئ والقيم العظيمة، وألهمه الشجاعة في مواجهة الخطر السوفسطائي على المعرفة والأخلاق والفضيلة، بالاختصار ألهمه أن يكون سقراط. فمن هو سقراط هذا؟

في ربيع عام 410 ق.م يجلس الأب سوفرونسيكوس متكئًا كعادته بعد عودته من مشقة النحت وقسوة العمل، ينظر يمنة ويسرة، وكأنه ينتظر شيئًا، أو يبحث عن شيء، فقد بشَّرته زوجته فايناريت بأنها كادت تضع مولودها الذي طال انتظاره.. ووسط شرود الزوج وانتظاره للغائب، يسمع صرخات زوجته.. يهرع إليها شوقًا وفرحًا.. إنها لحظات المخاض، يسر لها أمرها أنها تعمل "قابلة" وعلى دراية بعقبات الميلاد وصعوباته، فما هي إلا لحظات وتضع مولودها.

يا إلهي! إنه ذو أنف غريب.. وشكل أشد غرابة.. تُرى ما المستقبل الذي ينتظر مثل هذا الطفل؟ كيف يكون مصيره؟ عشرات الأسئلة تحاصر رأسي الأبوين، يقطعها الرضا بحركات الطفل الطبيعية، ليستقر في وجدانهما أنه طفل طبيعي وإن بدا غير طبيعي، طفل عاقل، بل قد يفوق أقرانه عقلًا حتى وإن كان شكله يوحي بغير ذلك. ومرت الأيام على سقراط وسط أبويه.. يشب جسدًا وفق طبيعة الأقران، ولكنه يشب عقلًا على غير عادة الأقران تمامًا.. لقد كان كثير التساؤل عن كل شيء.. مثيرًا للاستفهام عن كل شيء.. لا يرضى بشيء اسمه الواقع.. ولا يقر بشيء اسمه المألوف.. بل كان يبحث عن الصواب، عما ينبغي أن يكون لا عما هو كائن بالفعل.. كان ينتظره المستقبل العظيم لو أنه التحق بالتعليم واستكمل مشواره فيه، ولكن لضيق ذات اليد أخرجه والده من المدرسة دون أن يُتم تعليمه وهو في حوالي الثالثة عشر من عمره، ولكن

الصبي لم يضق ذرعًا، فلم يتهم والده بالتقصير، ولم يقذف والدته بالسباب، بل قال: "إن ما تعلمته من المعلمين يكفيني ولن أنساه، أما ما سأتعلمه من الحياة ورجال المدينة فهو ما سيجعلني رجلًا صالحًا حقًّا"؛ لذا نراه يصرح في فايدروس بقوله: "رجال المدينة هم الذين يعلمونني، أما الريف والأشجار فلا تعلمني شيئًا"..

وقد تزوج سقراط من امرأة تُدعى إكزانثيب، وكانت – فيما يُقال – تعامله معاملة سيئة يقابلها هو بالإحسان والصبر، فكان يقول: "إن إكزانثيب مثل السماء عندما ترعد، سرعان ما تبكي".. أي عندما يشتد غضبها سرعان ما تصفو..

ولكن ربما يكون هذا التوصيف مبالغًا فيه، ولعلي لم أجانب الصواب إذا افترضت أن السمعة التي لحقت بزوجة سقراط كونها شديدة المراس صعبة العشرة، ربما كان القصد منها إبراز مدى لطف سقراط وأناته وأخلاقه، حتى لا يُقال إنه كان ممارسًا للأخلاق أمام الناس منتهكًا لها في بيته، تلك هي البيئة الداخلية التي عاش فيها سقراط.

أب نحّات، وأم قابلة، وزوجة مشاكسة!! تُرى هل تكون هذه عوامل خلود لصاحبها؟!

أضف إلى ذلك أن سقراط كان ذا شكل غير مرغوب، أو غير محبب إلى النفوس، زاده إمعانًا في السوء أنه لم يكن يهتم بمظهره قط، بل كان أشعث الرأس، حافي القدمين، بالي الثياب، وربما يرسم هذا المشهد جزءًا من شخصيته البراجماتية البحتة، تلك الشخصية التي لم تهتم يومًا ما بأعراض الأمور، بل لم تنقب سوى عن الجوهر، إن تلك الهيئة وذاك الشكل لم يكونا

يمنان إلا عن فكر، وفكر عميق، نعم لقد قال عنه القبيادس في المأدبة: "إنه كان يشبه المخلوقات الخرافية المخوفة" إمعانًا ومبالغة في وصف الشكل الدميم لسقراط، وهو ذات الوصف الذي أيده ديورانت بقوله: "إذا جاز لنا أن نحكم من مشاهدة التمثال النصفي الذي وصل إلينا من أنقاض التماثيل القديمة، فقد كان سقراط بعيدًا عن الوسامة، برأس أصلع، ووجه كبير مستدير، وعينين عميقتين ذات فراسة، وأنف كبير عريض زاهر، لقد كان رأسه في الحقيقة أقرب إلى رأس عتال منها إلى رأس أعظم الفلاسفة".

ولعل تلك الصورة تمثل تصويرًا صادقًا للشكل، لكنها لا يمكن أبدًا أن تمس نقاء الجوهر، بل إن الذين صوروا سقراط في تلك الصورة البشعة، حتى ولو على سبيل المجاز، أهدوا إليه معروفًا وقدموا له إحسانًا؛ إذ إن هذه الصورة جاءت متفقة تمامًا مع مضمون فكره، إنه بالاختصار كان عنده نوع من التعالي على الشكل؛ لذا أهمل مظهره الخارجي، ومع هذا فقد كان تفريطه في الاعتناء بشكله بمثابة جرح لحساسية الذوق الأثيني، ورغم ذاك المظهر إلا أنه كان الحكيم بالامتياز، يقول وورنر: "قد تبدو الصعوبة في أن نعرف مَن هو سقراط، إلا أنه يتضح لنا أننا أمام شخصية مختلفة تمام الاختلاف عن أية شخصية ظهرت قبله، فهو غير عادي من خلال كونه عاديًّا، وذائع الصيت من خلال كونه أثينيًّا، ومتدين من خلال منهج الشك، وحكيم من خلال تظاهره بالجهل، مع ذلك لا نجد في شخصيته وسلوكه وآرائه أية متناقضات، هو في مجموعه كل متجانس، شخصيته دائمًا شخصية مؤثرة، بل إن المرء ليشعر لو أن فنانًا عظيمًا مثل أفلاطون أراد أن يشوهها، لما أمكنه ذلك".

إذن مضمون الصورة لا يتناقض أبدًا ومضمون الشخصية، لقد ثار سقراط ضد كل شيء بحثًا عن الجوهر وراء هذا الشيء، إن الشعب اليوناني كان يُقدس

الجمال والزينة وحسن المظهر، وكان يقدس آلهة الجمال، فجاء سقراط فانتعل الأرض وافترش التراب، وارتدى معطفًا قديمًا وحمل في يده عصاه.

قد تسأل: وما علاقة الجمال بمنظر سقراط؟

والإجابة ببساطة هي أن سقراط أراد أن يُسفه الفكر اليوناني ويثبت أنه خالٍ من كل مضمون؛ إذ إن المنظر ليس مهمًّا، ولكن الأهم هو الجوهر، وهذا ما فطن إليه وولف بقوله: "لم يكن سقراط يبدو جميلًا، غير أنه جميل في الحقيقة، إنه بشع بجسمه، ولكنه جميل بنفسه، إنها بشاعة جوهرية حتمًا لمصيره، ومشاركة في الأسطورة التي جعلت منه أبًا لتقليدنا الماورائي، يجسد سقراط في نظر الإغريقيين تعارض الكون والظهور، والنفس والجسد، وهو الذي سيجعلون منه أساس تفكيرهم، والذي ما نزال نحن دافعي جزيته".

لقد سأل سقراط والده ذات يوم، كيف عرفت الطريقة التي تضع بها أزميلك في الحجر، وإلى أي عمق تضربه حتى يخرج ذلك الأسد من قلب الحجر بهذا الجمال؟!

فأجابه والده قائلًا: "عليك بادئ ذي بدء أن ترى الأسد كامنًا في الحجر، وتحس كأنه رابض هناك تحت السطح، وعليك أن تُطلق سراحه، وكلما أحسنت رؤية الأسد أحسنت معرفة أين وإلى أي عمق تشق الحجر، والعماد بعد ذلك بطبيعة الحال على التمرين والتدريب".

ونفس الموقف يتكرر مع أمه، حيث سألها عن سر مهارتها في عملية التوليد فقالت: "إنني في الواقع لا أفعل شيئًا، وإنما أكتفي بأن أُعين الطفل على الانطلاق".

أوَليس هذان الموقفان يشـكلان عمق المعرفة والتذكر عند سقراط؟! إذن، لا يمكننا فهم سقراط أبدًا إلا بالعودة إلى الخلفية التاريخية وراءه، فهو صنيعة عصـره وابن بيئته، ويمكنني القول بقلبٍ مطمئن: "لو لم تكن تلك هي ظروف عصر سقراط، لما كان هناك سقراط ولما نما عقله بنمو مشكلات عصره".

ثانيًا: وحي سقراط

ثمة أدلة كثيرة على سمو فكر سقراط وارتباطه في أذهان قراء فكره بنوعٍ من القداسة التي لم يُعطها البشر إلا للأنبياء، وأهم هذه الأدلة ما ادعاه سقراطٌ من وحي يُخاطبه ورسالة يؤديها وغير ذلك من ادعاءات كان دائم التكرار لها يمكننا العرض لها كالتالي:

الدليل الأول: صوت الوحي

نرى عبر المحاورات السقراطية، تأكيدات سقراط المتكررة على أنه يتلقى وحيًا من مُشير يُشير عليه بأن يفعل وألا يفعل، وقد أشار عليه هذا المشير بأن الموت خير لا شر فيه في "فيدون"، كما أن الآلهة هي التي لقَّبته بالحكيم، وهذا اللقب أُشيع عنه وظل ملازمًا له فنراه يقول: "أيها الأثينيون رُبَّ سائلٍ منكم يقول: وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن أتيت أمرًا إذن؟ فلو كنت كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث، أنبئنا بعلة هذا إذ يؤلمنا أن نسارع بالحكم في قضيتك".

إذن، صوت الوحي الذي يأتي سقراط جعله مميزًا بشهادة أبناء وطنه وسقراط ذاته، ثم يقول في توضيح ذلك الصوت الذي جعله يبدو غريبًا ومميزًا وليس كسائر الناس: "وأعني بذلك الشاهد إله دلفي، إنكم ولا ريب تعرفون شريفون، فهو صديقي منذ عهد الصبا، وهو صديقكم منذ ظاهركم على نفي مَن نفيتم ثم عاد أدراجه معكم، كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور في

كل ما يعمل، فقد ذهب إلى معبد دلفي وسأل الراعية في جرأة لتنبئه إن كان هناك مَن هو أحكم مني، فأجابت: ليس بين الرجال مَن يفضلني بحكمته".

إذن الحكمة السقراطية ربما تكون ذات مصدر إلهي، هكذا تحدث سقراط.. وهكذا نطقت الشواهد.

الدليل الثاني: الفلسفة الأخلاقية

فلسفة سقراط في مجملها أخلاقية، فهو يدعو إلى الفضيلة، وإلى طاعة القوانين حتى ولو كانت ظالمة، مما جعل روسو يُطلق على سقراط "نبي الدين الطبيعي"، كما أنه لم يكن معتدًّا أبدًا بنفسه، لا في مأكل، ولا في مشرب، ولا في ملبس، وكان أكثر الناس تواضعًا، أي أنه ليس عاليًا في الأرض أو من المسرفين، ونحن لم نعهد مثل هذه الأخلاق سوى عند الأنبياء والمصلحين، إنه كان يتمتع بالأخلاق النظرية والعملية، تلك التي جعلت القديس أوغسطين يكتب عنه قائلًا: "سقراط أيها القديس، سلام عليك في رحاب الأنبياء".

الدليل الثالث: عدم جزعه عند الموت

لم يجزع سقراط عند الموت، ولم نعهد عليه سوى كل اطمئنان وحب لما هو مُقدم عليه، بل ساق الأدلة على أن الموت خير لا شرَّ فيه، وأنه خلود ما بعده خلود، وتحدث عن مصير الأرواح الطيبة ومصير تلك الأخرى الشريرة، وكل حديثه مما أقرته النبوات من بعده، وما سطرته الكتب السماوية عن الثواب والعقاب، ألا يدل ذلك على ثباته ثم اطمئنانه عند الموت بما يشبه الاطمئنان عند الأنبياء بنص حديثه هو حيث يقول: "ألا ترى أن عندي من روح النبوة ما عند طيور التم التي إذا أدركت أن الموت آتٍ لا ريب فيه ازدادت تغريدًا عنها في أي وقتٍ آخر؟ مع أنها قد أنفقت في التغريد حياتها بأكملها، وذلك

اغتباطًا منها بفكرة أنها وشيكة الانتقال إلى الله الذي هي كهنته، ولما كان الناس يشفقون هم أنفسهم من الموت، تراهم يؤكدون افتراءً أن طيور التم، إنما تنشد مرثية في ختام حياتها، ناسين أن ليس من الطيور ما يُغرد من برد أو جوع أو ألم، حتى البلبل والسنونو، بل حتى الهدهد، الذي يُقال عنه بحق إنه يغرد تغريدة الأسى، وإن كنت لا أؤمن بأن ذلك يصدق عليه أكثر مما يصدق على طيور التم، فهي إنما أوتيت موهبة التنبؤ لقداستها عند أبولو، فاستطلعت ما في العالم الآخر من طيبات، فطفقت تُغني لذلك وتمرح في ذاك اليوم أكثر مما فعلت في أي يومٍ سابق، كذلك أنا، فإني أعتقد في نفسي بأنني خادم قد اصطفاه الله نفسه، وإني رفيق لطيور التم فيما تعمل، فأنا أظن أنه قد أتاني سيدي من التنبؤ موهبة ليست دون مواهبها مرتبة، فلن أغادر الحياة أقل مرحًا من طيور التم".

أرأيتم إلى أي حد بلغت شجاعة سقراط وفرحه باستقبال الموت، لقد واجه الموت بشجاعةٍ نادرًا ما نجدها إلا لدى كبار المصلحين والأنبياء في التاريخ، وتلك الشجاعة في مواجهة الموت هي ما حُفر في أذهان وقلوب المعاصرين له، فكان ذلك دافعًا ليخلدوا ذكراه ويخلدوا أفكاره.

ثالثًا: المنهج والغاية والسؤال

هناك فروق جوهرية عديدة بين منهج سقراط ومنهج السوفسطائيين، فالقول بأنهما معًا يشتركان في المنهج (الجدل) ليس له أساس من الصحة، إذ كان منهج سقراط يقوم على التهكم والتوليد، وهو غير منهج الجدل الذي أسرف في استعماله السوفسطائيون، وكذلك هناك فروق واضحة في الغايات بين المذهبين، فسقراط يهدف إلى وضع تعريفات ثابتة تصلح لكل زمان ومكان، والسوفسطائيون يأخذون من قولهم بنسبية المعرفة ذريعة لهم لتغيير آرائهم بتغير المصالح، أو باقتضاء المواقف التي تستجد، فهي غاية ليست نبيلة، وليست شريفة، ولن تُجدي أو تُفيد بمثقال ذرة.

لقد كانت مهمة سقراط شاقة حقًّا، فقد كان يذهب إلى حيث يكون الأثينيون في منازلهم، في الولائم، في المعهد الرياضي أو في قاعات الرياضة، وبخاصة في الجورا (الساحة العامة للمناظرات السياسية)، قلب المدينة ومركز التبادل أو اللقاءات، حيث الطبقة الدنيا من التجار المتجولين وأكواخ العطارين والحلاقين تحيط بالمكان، والنساء في بيوتهن لتدبير الأسرة، وأكثر المنشغلين من الناس الأحرار يكملون مهامهم، والأرقاء يشتغلون في خدمة السادة وإقرار السلام العام، بالاختصار - على حد تعبير باركر - يخيم النظام الأثيني ويترك للمواطنين متعة البطالة وأوقات الفراغ للمحادثة.

أضف إلى هذا الجو العام، جوًّا خاصًّا يتمتع به سقراط، حيث كان له أسلوب عظيم يتمثل في الجدل، فبدلًا من الأسلوب الأيوني القائم على إجمال نتائج سبق الوصول إليها في نثر غامض أو شعر مليء بالألفاظ المبهمة، وبدلًا من الأسلوب السوفسطائي القائم على الترتيب المنظم للموضوعات وفق خطة موضوعة وفي حديث فصيح أخذ سقراط بمنهج السؤال الواضح والمحدد، والبحث عن إجابة تتمتع بذات القدر من الوضوح والتحديد.

وربما قيل إن الجو الديمقراطي أعطى لسقراط الحرية ليقول ما يشاء، ولكن ما لا يدركه الكثيرون أن طبيعة شخصية سقراط هي التي فرضت منهجه وسيرته وفلسفته؛ لأنه على فرض أن أحد الطغاة هو الذي يحكم أثينا آنذاك، فإن ذلك لن يغير من طبيعة سقراط شيئًا، لدرجة تجعلنا نقول: إن سقراط لم يكن متمتعًا بحرية الكلمة بسبب نظام سياسي، ولكنه كان متمتعًا بحرية الكلمة بسبب تركيب نفسي وعقلي فريد من نوعه.

على أي حال تبدو لي المشكلة بين سقراط والسوفسطائيين متضمنة في نقطتين اثنتين، الأولى أن السوفسطائيين ادعوا تعليم الناس منهجًا للحياة في ذات الوقت الذي ادعوا فيه نسبية الحقائق.

والثانية أنهم علّموا الناس الخطابة دون أن يوجهوهم إلى الغاية من هذا العلم، وبالتالي وضعوا أسلحة في يد مَن لا يُحسن استخدامها. ولنذهب إلى بروتاجوراس مثلًا، لنجد فيه هاتين الصفتين متأصلتين، إنه كان يدّعي أن أي شخص يقصده لا بد وأن يتعلم فن السياسة، فيقول: "ولكنه إذا جاءني فإنه سيتعلم هذا الذي جاء لتعلمه وهو حُسن التدبير في حياته الخاصة والعامة، سيتعلم كيف يرتب داره خير ترتيب، وسيصبح قديرًا على القول والعمل في مباشرة شيء من منصبه"..

في هذا النص، الوسيلة سيئة، والغاية أسوأ.

الوسيلة الجدل أو فن الحديث، والغاية شكلية، غير ذات مضمون.

فلو أن بروتاجوراس قال: "وسوف أحاول أن أغرس فيه الفضيلة الحقيقية بغض النظر عن الشكليات" لما كان سوفسطائيًّا، ولكنه بصفة عامة يختصر المذهب السوفسطائي في أقواله وأفعاله وغاياته.

لقد كانت الغايات كلها منصبة حول جمع أكبر قدر ممكن من الثروة، فهم يثبتون الشيء ونقيضه في آنٍ واحد، ويساعدون الناس على تحقيق أمانيهم، فقد كان بإمكان أي مواطن عادي أن يتعلم فن السياسة على يد أحد السوفسطائيين، ثم يصبح من دعائم النظام السياسي أو القضائي في أثينا، لا لشيء سابق في نفسه، ولا لفضيلة تكمن في ذاته، ولكن لأنه بين عشية أو ضحاها قد تعلم الجدل على يد السوفسطائيين.

حقًّا، لقد سعى السوفسطائيون إلى جمع المال بقدر ما تسعفهم طاقاتهم، وعلى حساب أي شيء، رغم أن بروتاجوراس حاول دفع تلك الشبهة من قبل بقوله: "حينما يريد أحد أن يتتلمذ عليَّ فإنه يدفع الثمن إذا أراد، ولا إجبار في ذلك، وإذا لم يرد فعليه أن يذهب إلى المعبد ويأخذ على نفسه عهدًا بتقدير قيمة التعاليم ولا يدفع أكثر مما يعلن أنه قيمتها"، فقد يبدو هذا تبريرًا منطقيًّا، لكنه ليس له أدنى قيمة من الناحية العملية.

إجمالًا، يمكننا القول إن ما يفعله السوفسطائيون لا يُعد تعليمًا بقدر ما يُعد ارتقاءً بالمهارات وتنمية للقدرات لا أكثر، أما ما يفعله سقراط فقد كان مغايرًا تمامًا، إنه كان يغرس الفضيلة في النفوس غرسًا، فضيلة المعرفة، وفضيلة البحث عن الحقيقة، وفضيلة الثبات على المبدأ مع تغير الظروف، وغير ذلك من فضائل عديدة مارسها سقراط نظريًّا وعمليًّا.

منهج سقراط:

لعل التساؤل الآن يصبح بشأن المنهج، ما هو المنهج الذي استخدمه سقراط ليصل به إلى غاياته؟! تلك الغايات التي اتفقنا أنها البحث في المضمون وليس الشكل، الجوهر وليس العرض. لقد لجأ سقراط إلى منهج جد جديد، لم يعهد من قبله، إنه منهج التهكم والتوليد.

لقد كان والد سقراط يعمل نحاتًا. ويمكن إطلاق اسم التهكم على هذه المرحلة، وأمه كانت تعمل قابلة، ويمكن إطلاق اسم التوليد على هذه المرحلة، وهما اللذان تركا أثرًا كبيرًا على سقراط فيما يذهب البعض: "ويبدو أن مهنة والدَي سقراط كان لها أثر كبير على الفيلسوف، والذي يظهر في تاريخ الفلسفة كنحات للعقول وكمولِّد للمعرفة في ذات الوقت".

والتهكم عند سقراط معناه أن يبدأ سقراط بسؤال محدثه مدعيًا الجهل، مما يُشعر المسئول أنه أعلم من سقراط ويُضفي عليه الزهو والخيلاء، ولكن سرعان ما يأخذ سقراط إجاباته غير المتناسقة ويفندها، ليبين أوجه القصور والخلل فيها، وكان سقراط لا يذهب إلا إلى المشاهير في فنهم، فإذا أراد أن يسأل عن العدالة ذهب إلى أكبر القضاة، وإذا أراد أن يسأل عن الشجاعة ذهب إلى أشجع الأبطال، وإذا أراد أن يسأل عن التقوى يسأل مَن اشتُهر بتلك الصفة، وهكذا.

أما مرحلة التوليد فنجد سقراط يعيد بناء المعرفة على أسس جديدة بعد أن يكون قد طهَّر نفس محدثه من الأوهام والآراء المزيفة.

ولعل قائلًا يقول: إن منهج التهكم الذي استخدمه سقراط كان يسيء إلى خصومه ويجرح كبرياءهم، وفي ذات الوقت الذي يضيق به الشيوخ ذرعًا،

ينجذب إليه الشباب انجذابًا. ولكن هذا المنهج وإن كان حقًّا يجرح كبرياء الخصوم، فهم أنفسهم الذين يتسببون في هذا الجرح؛ لأنهم يتعالون على سقراط ويأخذهم الغرور، والمثل الأكثر شهرة هو موقف سقراط من جلوكون، الأخ الأصغر لأفلاطون، حيث لم يكن جلوكون قد تجاوز العشرين من عمره، إلا أنه كان شديد التطلع إلى مناصب الحكم دون علم كافٍ بما يتطلع إليه، ولما لم تُجدِ محاولات والده وأصدقائه في شفائه من داء الغرور والادعاء الذي أثار عليه السخط العام تدخل سقراط إشفاقًا عليه وإكرامًا لأخيه أفلاطون، وبدأ يوجِّه له الحديث الذي انتفخت له أوداجه في بادئ الأمر، ولكن لم يكد سقراط يسترسل معه في الحوار حتى انتهى الحديث بإدراك جلوكون لجهله بكافة أمور السياسة والاقتصاد والحرب، وهي من أخص شروط الاشتغال بالسياسة، وعندها أدرك جلوكون بأن سقراط إنما كان يسخر منه.

ولكن سخرية سقراط لم تكن أبدًا من خصم، ولكنها كانت من ادعاء الخصم، فقد كان سقراط متواضعًا في غير ترفُّع، وحسن الخلق في غير ابتذال، وحكيمًا بلا جدال، ولقد تمثلت تلك الحكمة في جملة واحدة رائعة يقول فيها: "أنا لا أعلم، وأعلم أنني لا أعلم، في حين أن غيري لا يعلم، ويجهل أنه لا يعلم".

إجمالًا، لقد لجأ سقراط إلى منهج التهكم والتوليد لثلاثة أسباب:

الأول: أنه ربما كان يريد الوصول إلى علة تنبئه عن حقائق وجواهر الأشياء المسئول عنها.

الثاني: أنه ربما أراد توليد المعرفة لدى الآخرين بحكم عقيدته التي تقر بفطرية المعرفة وعدم إمكانية تعلمها.

الثالث: أنه ربما أراد أن يصل إلى حقيقة واحدة مؤداها "أنه لا توجد حقيقة".

وعلى فرض صحة هذه الأسباب، فهل يُعد إنكار سقراط أنه يعرف شيئًا انتقاصًا من شأنه أم رفعة لقدره، حيث يضع نفسه في نصابها وحيث يعلم حقيقة حجمها؟

ما يدلك على صحة ما ذهبنا إليه من رأي هو موقفه مع أوطيفرون.

لقد التقى سقراط بأوطيفرون في دهليز كبير القضاة، إذ كان لكل منهما عند القاضي مسألة قصد إلى إنجازها، أما سقراط فقد جاء في شأن القضية التي اتهم فيها بالإلحاد والتي أقامها عليه مليتس، وأما أوطيفرون فقد جاء مدعيًا في قضية قتل أقامها على أبيه؛ إذ إن رجلًا من أتباع أسرة أوطيفرون قتل عبدًا من عبيدها في ناكسوس، فأمر والد أوطيفرون بالقاتل فشُد وثاقه وأُلقي في خندق ريثما يستفتي علماء الدين في أثينا عمَّا ينبغي أن ينزل بهذا المجرم من صنوف العقاب، ولكن المنية لم تمهل الجاني حتى يعود الرسول من أثينا حاملًا للفتوى، فقضى نحبه لما أصابه من جوع وبرد، فلم يتردد أوطيفرون في أن يتهم أباه بجريمة القتل.

لكن السؤال الآن: لماذا يتهم أوطيفرون والده بالقتل؟

أوَليس القاتل قد قتل، فهي مسألة على أقل تقدير من باب النفس بالنفس!!

ربما قيل إن سقراط متهم بالفجور، وأوطيفرون تقي لأنه نحَّى المشاعر جانبًا ورفع دعوى قضائية ضد والده متهمًا إياه بالقتل، وما فعل ذلك إلا بدافع التقوى، فسقراط يريد أن يعرف تحديدًا لمعنى التقوى حتى يستعين به في

دفاعه عن تهمة الفجور، ولعل ذلك هو الرأي الذي اطمأن إليه الجميع، في حين أنه لا يمثل الحقيقة، لا من قريب ولا من بعيد!!

على أية حال، لنأخذ العبرة من منهج سقراط في هذه المحاورة، حيث كان التهكم بمثابة إشباع لغرور الخصم، ويتضح ذلك جليًّا من قول سقراط لأوطيفرون، مثلًا "يا للآلهة يا أوطيفرون! ما أقل ما يعلم غمار الناس عن الحق والصواب، إنه لا بد للإنسان أن يكون ممتازًا وأن يكون قد خطا في الحكمة خطوات فسيحة، حتى يستطيع أن يتلمس سبيله إلى مثل هذه الدعوى".

فيرد أوطيفرون، قائلًا: "حقًّا يا سقراط، لا بد أن يكون كذلك"، ثم يمتلئ أوطيفرون بالغرور فيتم حديثه بقوله: "إن أفضل ما في أوطيفرون وهو ما يميزه يا سقراط عن سائر الناس، هو دقة علمه بمثل هذه المسائل جميعًا، وهل تراني أصلح لشيء لو سلبتني هذا العلم؟"

وهنا أيضًا يُشبع سقراط غرور أوطيفرون أكثر فيقول له: "أيها الصديق النادر، أحب أو خير ما أصنعه أن أكون تلميذًا لك، وإذن فسأتحدى مليتس قبل أن تحين المحاكمة معه، وسأقول له: إنني ما فتئت عظيم الشغف بالمسائل الدينية فما دام يتهمني بطيش الخيال والإبداع في الدين، فقد أصبحت تلميذًا لك".

وهنا تنتفخ أوداج أوطيفرون فيقدم لسقراط مثلين للتقوى فيرد عليه سقراط بقوله: "تذكر أني لم أطلب إليك أن تضرب لي مثلين أو ثلاثة للتقوى، بل أن تشرح الفكرة العامة التي من أجلها تكون الأشياء التقية كلها تقية، ألا تذكر أن ثمة فكرة واحدة من أجلها كان الفاجر فاجرًا والتقي تقيًّا".

وهذه العبارة وحدها تلخص منهج سقراط بأسره!! إذ إن سقراط يريد تعريفًا عامًّا، بحيث ينبع الفعل من العقل لا العادة، الفكر لا العرف.

أما أوطيفرون فكل تصرفاته من محض اشتراطات العادة.

وهنا يُقدم أوطيفرون تعريفًا جديدًا فيقول: "إذن فالتقوى هي ما هو عزيز لدى الآلهة، والفجور هو ما ليس بعزيز لديهم".

بالاختصار، يأخذ سقراط هذا القول ويُفنده، ليُثبت لأوطيفرون أن كلامه لا يصلح تعريفًا عامًّا مجردًا، فيتوسل إليه سقراط أن يعلمه حقيقة التقوى والفجور، ولكن أوطيفرون يتعلل بضيق الوقت وانشغاله، فيقول له سقراط متهكمًا: "وا أسفاه يا رفيقي! وهل تخلفني في يأس؟ لقد كنت أؤمل أنك ستعلمني طبيعة التقوى والفجور، وعندئذٍ أستطيع أن أبرئ نفسي من مليتس ومن دعواه، كنت سأقول له إنني استنرت بأوطيفرون ونبذت بدعي وتأملاتي الطائشة التي انغمست فيها بسبب الجهل، وإنني أوشك الآن أن أحيا حياة أفضل".

وهكذا تنتهي المحاورة دون الوصول إلى تعريف واضح ومحدد، أو دون إشباع رغبة سقراط المتطلع إلى المعرفة، وهذا يعني – النهايات السلبية للمحاورات السقراطية – أن سقراط كان يكتفي بإفراغ عقول محاوريه من معارفهم الزائفة ليضع بذلك عقولهم على بداية الطريق الصحيح للمعرفة إذا ما تنبهوا إلى معرفة معنى "التعريف الشامل" المطلق، إنه يحثهم على إدراك هذا التعريف المطلق ويُبين لهم كيفية الوصول إليه دون أن يقدمه لهم.

وربما يقول قائل: إن سقراط يُفند الآراء بشأن أي تعريف، فليُعطِ هو تعريفًا من عنده يراه صائبًا في النهاية، ولكنه لا يفعل ذلك، إذن فما المغزى من الحوار؟ ربما لم يفعل ذلك اعترافًا بجهله، فهو جاهل يعلم أنه جاهل، وهو ما يتفق مع نبوءة الكاهنة، وربما لم يفعل ذلك إيمانًا بفطرية المعرفة فيترك للناس فرصة التذكر.

إن كل ما كان يريده سقراط هو وضع تعريفات ومبادئ محددة لا تتغير بتغير الظروف والمواقف، وهذه التعريفات إنما تُستمد على الأقل من مبدأ أخلاقي يحافظ على ثبات القيم لا نسبيتها؛ لذا ربما قيل إن سقراط كان يخاطب الضمير الإنساني أينما حلَّ أو ارتحل بأن يتكلف البحث عن الجوهر لا العرض، عن المضمون لا الشكل، ولعل تلك المعضلة كانت إحدى مبررات إعدام سقراط أنه لم يكن ليرضى عن نسبية بغيضة إلى نفسه كل البغض، ولم يكن ليرضى عن الأسلوب الخطابي الذي يُشبع حاسة السمع لا حاسة العقل، وتاليًا فقد كان سقراط مسببًا للتوتر العقلي في نفوس مستمعيه، كان بمثابة الذبابة اللاذعة التي تُحرك الشوق إلى المعرفة، تلك الذبابة التي حكى عنها في دفاعه، إنه توتر عقلي من مستوى رفيع.

إن كل ما يستطيع أن يؤديه سقراط - بحسب زيللر - هو أن يخلع عن الناس طمأنينتهم العقلية ليُحل محلها توترًا عقليًّا ويجعلهم في حالة من الاضطراب، وكثيرًا ما أحدث سقراط هذه النتيجة بأن كان يدَّعي أنه يود التعلُّم على آخرين - مثلما حدث مع أوطيفرون - ثم سرعان ما يظهر نقصهم العقلي خلال الحديث.

الغاية:

يبقى التساؤل الآن: ما هي الغاية من منهج سقراط [التهكم والتوليد]؟ ولعل الإجابة عن ذلك تكمُن في أن سقراط آثر أن يستعمل نفس أسلوب السوفسطائيين في الجدل، لكن شتان بين جدل يبني، أو على الأقل يوقظ النفس من سُباتها، وجدل يهدم، أو على الأقل يطفئ في النفس قيمتها.

كذلك شتان بين الغايتين، غاية سقراط في تثبيت أركان القيم، ووضع تعريفات ثابتة، وغرس القيم وترسيخ الفضيلة، وغاية السوفسطائيين الكسب

المادي وتحقيق شهرة زائفة لا أكثر، تلك الغاية هي التي كانت تُبيح لهم قلب الحقائق وتعليم الناس الخطابة واستغلال مهاراتهم اللفظية ومواهبهم في قدرات الذكاء المتعدد للكسب المادي فقط لا غير.

خلاصة القول في الفارق الرئيسي بين التعليم السوفسطائي الذي أقل ما يُقال عنه إنه هادم لكل معرفة، وتعليم سقراط الذي أقل ما يُقال عنه إنه نبيل الغاية، يكمن في القول: "أجل، إنه لا يطلب من السوفسطائي أن يخلق قادة من حيث لا تسمح الطبيعة بإيجاد القادة، فإن هذه الصفات التي تستلزمها القيادة مثل حضور الذهن والمثابرة والإقدام، وهي الصفات التي تطلبها ثيوكيديدس من السياسي، لكي يكون على رأس دولة وبها وصف ثموستوكليس، نقول إن هذه الصفات فطرية وليس للسوفسطائي أو لأي كائن مَن كان أن يخلقها في نفس الرجل، ولكن الشيء الذي يمكن بل ويجب أن يُربَّى عليه الإنسان فهو الخطابة، والقدرة على التأثير في الناس، أي الناحية الشكلية في الروح الإنسانية؛ لذا سيكون الغرض الأصلي للتربية متجهًا إلى الناحية الصورية في الرجل، فهي إذن مبدأ صوري في الشخص الذي تكون فيه".

إذن، السوفسطائيون لا يهتمون سوى بالناحية الشكلية من الصورة الإنسانية وسقراط لا يهتم سوى بالناحية الجوهرية من الروح الإنسانية (وليست الصورة الإنسانية) ولو لم يوجد فارق بين الغايتين سوى هذا الفارق لكفى بأن يُخلد اسم سقراط ويسمو بغايته.

السؤال:

سقراط كان كثير السؤال قليل الإجابة، فهو يسأل كثيرًا، ولكنه لا يُعطي إجابات لما يُطلقه من أسئلة.

لقد كان سقراط دائم السؤال عن معنى الشيء؟ وقد نقول لماذا يهوى سقراط إفزاع الناس بأسئلة قد يجد إجابتها في القاموس اللغوي بكل بساطة؟ بمعنى أنه يسأل عن الشجاعة مثلًا، فبدلًا من أن يسأل لاخيس، فليتوجَّه مباشرة إلى المُعجم وسوف يجد إجابة وافية لسؤاله.

ولكن المعنى الذي يقصده سقراط ويبحث عنه لم يكن أبدًا مجرد المعنى اللغوي أو المعجمي أو الشفهي الذي تذوب فيه العبارات، ولكن المعنى العقلي الذي يمكن أن يتفق عليه الجميع كان هو مقصود سقراط من هذه الأسئلة.

يدلك على ذلك مثلًا عندما سأل سقراط عن معنى الشجاعة، أجابه لاخيس بقوله: "عندما يبقى الجندي في مركزه يصمد في وجه العدو بدلًا من الهرب، فاعلم أن هذا الجندي شجاع"، ولكن هذا ليس تعريفًا، فهو لا يعطينا معنى ولكنه يعطينا توصيفًا ليس إلا، يعطينا إطارًا وصفيًا عامًّا لشكل الكلمة لا معناها أو مضمونها. ويلاحظ أيضًا أن الأسئلة السقراطية لم تكن ذات دلالات تفسيرية واحدة، بمعنى أن هناك مَن يفسر الأسلوب السقراطي بأنه تهكم دائم لا جد فيه، وهناك مَن يفسره بأنه جد لا تهكم فيه، وهناك مَن يفسره بالحكمة المطلقة لصاحبها، ومَن يفسره بالعرافة والكهانة ومَسّ الجن.

ولكن اختلاف هذه الدلالات التفسيرية إنما يرجع إلى سببين رئيسيين:

الأول: أن سقراط عُد مبتكرًا لعلم المنطق؛ لأنه ابتكر الاستدلالات الاستقرائية فيما يشهد له بذلك أرسطو، وذلك في الانتقال من تعريف إلى آخر محاولًا الوصول إلى جوهر التعريف الذي يبحث عنه، فهو ينتقل من مقدمة إلى نتيجة ثم يرفض كلاهما في مشهد استقرائي بديع، مما يضفي المنطقية

على سـؤال سقراط، ومما يخيل للقارئ أو للمسـتمع أن سقراط لا يفعل شيئًا سـوى التلاعب بالألفاظ، ولكن ما يفعله سقراط هو استقراء المعاني الحقيقية التي تُساق خلف الكلمات.

والثاني: أن جدل سقراط كان هادفًا مع أقوام غير هادفين، بمعنى أن لاخيس مثلًا كان يشـارك سـقراط في السـؤال عن رياضة المسـايفة، هذا سؤال شكلي إلى أبعد حد، فجاء سـقراط ليغير مجرى الحديث تمامًا، بالتساؤل وماذا تفعل المسايفة؟ إنها لن تصنع من الجبان شجاعًا أبدًا، وهنا يتحول مجرى الحديث لأنهم كانوا مسـتعدين للحديث في شـيء، بينما وجههم سقراط وجهة أخرى ليوجـه سـقراط أنظارنا بذلك إلى أهمية أن نعرف مـاذا نريد فعله، ثم بعد ذلك نبحث عن الوسـائل التي تمكننا من ذلـك، وليس العكس، أي لا يصح أبدًا أن نسأل عن الوسيلة، ثم بعد ذلك نحدد الهدف منها.

هـذا المنهج في السـؤال في حـد ذاته منطقي مائة بالمائـة، فلماذا لا نفهم سقراط إذن؟ هل لأن السؤال يُعد معضلة؟! هل نختزل سقراط في سؤاله؟ أو على حد تعبير وولف: هل سقراط ليس سوى مضايق سار؟ أليس حائلًا دون الفكر الدائري يهوى إزعاج الضمائر وإفراغ الرؤوس الممتلئة تمامًا؟ هل هذه هي السـقراطية وحسـب؟ وهذا الطرح للمناقشة، وهذا الارتياب الدائم، هل كان سقراط يدور في الأسواق ويلقي أسئلته على الجميع للكسب المادي أم لمحض المتعة الجدلية أم لماذا؟

ومـن ناحية أخرى، هل كان سـقراط يبحث في المحدد أم المطلق؟ بمعنى آخر: هل كان يهتم بإضفاء جوهر الفكر على الفكرة؟ أم يهتم بمضمون الشيء عن ظاهره؟ كل هذه الأسئلة قد تشعر المهتمين بسقراط بأنها معضلات كبرى

صعبة الإجابة!! ولكن المتعمق بعينين غائرتين في فلسفة سقراط يرى أنه يتلخص في عبارة واحدة: "البحث عن الحقيقة".

نعم، تلك هي حقيقة سقراط، وتلك هي غاية سقراط، إذن يمكننا القول بأن منهج سقراط ذاته أثار المشكلات، والغاية عند سقراط أثارت الاختلافات حولها، وسؤال سقراط أثار الشبهات حوله، بحيث نقرر بكل اطمئنان أن الثلاثة اشتركوا في صناعة إعدام سقراط، نعم، لقد أثار منهج سقراط حوله العديد من الخصوم الذين لم يكن لهم غاية سوى المال والشهرة، كما أثار سؤاله أيضًا العديد من الخصوم، خاصة أولئك الساسة والقادة والمشاهير، الذين كانوا يظنون في أنفسهم الأهلية الكاملة للعلم والقيادة.

هو صراع إذن بين شكل ومضمون، بين عَرَض وجوهر، بين علم راسخ، وجهل هش، وهذا هو ما أفضى إلى إعدام سقراط.

رابعًا: الفضيلة

في البداية لا يمكنك أن تتخطى أبدًا قول أرسطو: "لم يهتم سقراط بالطبيعة بمجملها، وإنما بالمشكلات الأخلاقية، وقد بحث في هذا المجال عن الشمولي، وكان أول مَن قاد الفكر نحو التعريفات".

ثم يطالعنا زينون أيضًا بقوله: "إن سقراط ليس فقط يدعو إلى الاعتدال ويشجع الناس على بلوغه من خلال وصاياه ومبادئه، بل بسلوكه وكونه قدوة لهم".

وكذا يقول آخر: "لقد كان سقراط أول واضع لنظام أخلاقي من فلاسفة اليونان، وأول مَن قدم القيم الأخلاقية على كل ما عداها، ومنذ ذلك الحين أخذت الأفكار السياسية والأخلاقية تحتل مكانًا أرفع، ولا نغالي إذا قلنا إن جميع المؤلفات الغربية في هذا الموضوع تنبع مباشرة أو بالواسطة من تعاليمه، فهيمنت حياته ووفاته على الأخلاق في العالم الغربي كله، ولم يُمحَ أثرهما أو يتضاءل من جراء ظهور المسيحية".

إذن، الفضيلة عند سقراط نظرية وعملية، فقد كان سقراط حقًّا رجلًا فاضلًا، ممارسًا لكل حرف ينطق به، وليس على غرار أولئك المدخنين الذين يسخطون على أولادهم وينهونهم عن التدخين، بل كان ممارسًا لأقصى درجات ضبط النفس، وممارسة كافة الفضائل، تلك التي اكتملت بداخله، ولم يقف عند حد

الممارسة فقط، بل أراد أن يعلم الجميع تلك الفضائل نظريًّا، بحيث تختلط بشغاف قلوبهم، وعمليًّا، بحيث تمارسها أعضاؤهم، مقدمًا دعوته تلك على كافة شئونه ومصالحه الشخصية، يقول سقراط: "أما أنني جئتكم من عند الله فهذي آيته، لو كنت نكرة من الناس لما رضيت مطمئنًّا بإهمال شئون عيشي إهمالًا طوال تلك السنين، لأخصص نفسي لكم، فقد جئتكم واحدًا فواحدًا، شأن الوالد أو الأخ الأكبر، فأحملكم على الفضيلة حملًا، وليس ذلك ما عهدناه في طبيعة البشر، ولو كنت قد أفدت من ذلك أجرًا أو جزاءً لكان لذلك مدلول آخر، ولكن هل تجرؤ حتى وقاحة المدعين أن تدّعي أني أخذت أجرًا أو سعيت إليه؟ إنهم لن يفعلوا لأنهم لن يجدوا لذلك دليلًا، أما أنا فعندي ما يؤيد صحة ما أقول وحسبي بالفقر دليلا".

ذاك منهج عقلي يسير من المقدمات إلى النتائج وفق حتمية منطقية صارمة لا يستطيع العقل أن يشكك فيها.

فسقراط أهمل شئون حياته إهمالًا تامًّا، ثم إنه لم يأخذ أدنى أجر على تعليمه لأحد، ثم فقره دليل على صدق ما يقول.

ولو فُرض أن سقراط أخذ أجرًا على تعليمه للناس، فهل يقدح ذلك في سمو دعوته الأخلاقية إلى الفضيلة؟ أليس كل الذين يُدرّسون فضائل سقراط للطلاب في الجامعات يتقاضون أجرًا على ذلك؟ فما المعضلة إذن؟!

المعضلة الحقيقية هي أن سقراط لو أخذ أجرًا لاتُّهم بأنه يعمل ضد الفضيلة التي يريد ترسيخها؛ لأنه حينئذٍ يكون قد اهتم بأعراض الدنيا، تلك التي كان يدعو إلى التخلص منها.

هو إذن يسعى إلى اكتمال الفضيلة في نفسه وفي حياته، في جسده وفي روحه، لا يريد أن يتعدى ذلك قيد أنملة.

وتتجلى قمة ما في فضائل سقراط من مجد وكرامة في فضيلتين عظيمتين، الأولى: لا يجوز أن نرد الشر بالشر.

الكتب السماوية أباحت للمُعتدى عليه أن يقتص بقدر ما اعتُدي عليه، فقال القرآن: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]. وقال أيضًا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126] هذه قاعدة منطقية يقبلها العقل وتُقرها الفطرة.

لكن سقراط؛ لأنه يريد اكتمال الفضائل، وتشبع الأخلاق، والممارسة العملية لتلك الفضائل، يرفض أن نرد الشر بالشر، إيمانًا منه بأن المعرفة هي الفضيلة، وينبغي ألا نجهل الفضائل، بل إن الذات الجاهلة بالفضائل تستحق النفي خارج البلاد فيقول: "إن الجهل بالذات مع توهم المعرفة حالة موصلة إلى الجنون، والجنون يقتضي النفي خارج البلاد".

إذن، فضيلة الإنسان العاقل المتمثل لفضيلة ما في نفسه تقتضي ألا يسيء إلى أحد، وألا يرد الشر بالشر، ويتضح ذلك جليًّا من خلال هذا الحوار بين سقراط وأقريطون:

سقراط: أفيجوز لنا القول بأنه لا ينبغي لنا قطعًا أن نتعمد الخطأ؟ أم أن فعل الخطأ مقبول حينًا مرذول حينًا آخر؟ أم أن فعله أبدًا شر ووصمة عار كما سبق لي القول الآن وسلمنا بصحته معًا؟ أفننبذ الآن كل ما سمحنا لأنفسنا به منذ أيام قلائل؟ أم أننا قضينا هذا العمر الطويل، يحاور بعضنا بعضًا في حماسة وإخلاص لكي نوقن ونحن في هذه السن بأننا لا نفضل الأطفال في شيء؟ أم

نثق ثقة قاطعة بصحة ما قيل من قبل، من أن الجور دائمًا شر وعار على الجائر، برغم ما يرى الدهماء، وبرغم ما ينجم عن ذلك من نتائج، حسنة كانت أم سيئة؟ هل تؤيد هذا؟

أقريطون: نعم.

سقراط: إذن يجب ألا نفعل الخطأ.

أقريطون: يقينًا يجب ألا نفعله.

سقراط: وإذا أصابنا الضرر فلا نرده بضرر مثله، كما تتخيل كثرة الناس؛ لأنه يجب ألا نصيب أحدًا بضر.

أقريطون: واضح أن ذلك لا يجوز.

سقراط: ثم هل يجوز لنا أن نفعل الشر يا أقريطون؟

أقريطون: لا يجوز قطعًا يا سقراط.

سقراط: وما رأيك في رد الشر بالشر، وهي أخلاق الدهماء، أذلك عدل أم ليس بالعدل؟

أقريطون: ليس بالعدل.

سقراط: فلأن تصيب أحدًا بشَرٍّ كأن تصيبه بضر.

أقريطون: صحيح جدًّا.

سقراط: إذن لا ينبغي لنا أن نأخذ بالثأر، ولا أن نرد الشر بالشر لأحدٍ ما، كائنًا ما كان الشيء الذي ابتلانا به، وأحب أن تنظر في الأمر يا أقريطون، لترى هل كنت تعني ما تقول، أأنت متفق معي ومؤيدي في مبدئي ذاك، وهو أن ليس

من الحق إيقاع الضر، ولا الأخذ بالثأر ولا رد الشر بالشر؟ أمسلم أنت بهذا مقدمة لحديثنا؟ أم أنت منكر له راغب عنه؟ لقد كان ذلك مذهبي منذ عهد بعيد وما يزال كذلك.

ينتهي سقراط من هذا الحوار إلى أن الإنسان الفاضل حقًّا لا يرد الشر بالشر؛ لأن الشر إذا كان يليق بفاعله، فهو لا يليق بالمفعول به أن يرد بمثله، ولكن ليرد بما يتفق مع أخلاقه هو، ومبادئه هو، تلك الأخلاق والمبادئ التي لا تقبل أبدًا أن تفعل الشر أو تأخذ بالثأر أو ترد الشر بالشر مهما كانت الخسارة التي تلحق بالمفعول به جراء هذا الشر، وذاك مبدأ سقراطي أصيل.

الممارسة العملية للفضيلة:

رُبما قيل إن المشكلة الرئيسية في فلسفة سقراط أنه لم يكن لديه فرق بين النظر والعمل، فجميع أقواله النظرية طُبقت في حياته العملية، لدرجة جعلت أتباعه يغالون في تقديسهم له وفي بعض جوانب فلسفته.

وتتجلى هذه الفضيلة جيدًا في حوار سقراط مع أحد السوفسطائيين في "المذكرات"، حيث يسخر السوفسطائي أنتيبو من فقر سقراط ورفضه الحصول على المال مقابل تعليم الشباب، لكن سقراط يفاجئه بقوله: "إن تعليمي للشباب يجعلني حرًّا في اختيار مَن أعلمه، ومن العار أن أبيع الحكمة ولكن المكسب الحقيقي هو اكتساب الأصدقاء والقيام بالواجب تجاه الوطن وتعليم الشباب وتثقيفهم".

ويستمر اعتراض أنتيبو على سقراط حيث يقول له: "أعتقد يا سقراط أن هؤلاء الذين يدرسون الفلسفة كانوا أسعد من غيرهم من البشر ولكن يبدو أنك قد حصدت الفاكهة من الفلسفة ولكنها من نوع آخر، على الأقل فأنت تعيش

بطريقة لا يستطيع أن يحيا بها العبد مع سيده، فأنت تأكل الطعام، وتشرب الشراب من أسوأ الأنواع، وتلبس ملبسًا ليس فقط رديئًا، لكنه نفس الملبس صيفًا وشتاءً، وتعيش بلا حذاء وبلا معطف، إن المال يُسعد البشر عندما يمتلكونه، ويمكنهم من أن يحيوا حياة أكثر كرامة وسعادة، ولكنك يا سقراط لا تتقاضى مالًا؛ لذا فأنت كالمعلمين في بقية المهن إذ جعلوا تلاميذهم يحاكونهم فيجب عليك أيضًا أن تترك تأثيرك على أتباعك ويجب أن تعتبر نفسك مجرد معلم للبؤس والقذارة".

ولعل أنتيبو يلمس جانبًا واقعيًّا، فالمال حقًّا قد يكفي الإنسان حاجاته الأساسية على الأقل ويمنعه من العوز والحرمان، ولكن سقراط لا يلقي لذلك كله بالًا، ولعل الوصول إلى حياة التثقيف تلك التي مارسها سقراط ليست بالأمر اليسير، فالناس - فيما يقول زينوفون - ضعفاء أمام الشهوة، أما حياة الاعتدال فإنما تتطلب المران على التحمل، وسقراط نفسه يعترف بأنه يمرن جسده باستمرار ليتحمل أي شيء قد يحدث له.

ولعل السؤال: لماذا كل هذا التعنت ضد الجسد؟! هل سقراط أسمى من البشر؟!

والإجابة عن ذلك يسيرة، إذ ليس هذا تعنتًا ضد الجسد، وليس سقراط سوى بشر، لكنه بشر كشأن الكثيرين من طاهري النفس، الذين تساموا فوق بشريتهم واقتربوا من الموكب الإلهي والصفات الإلهية، فتراه يقول لأنتيبو: "أنت يا أنتيبو تشبه الذي يعتقد أن السعادة تنشأ من الرفاهية والتبذير، ولكنني لا أعتقد أنه لكيلا تطلب شيئًا فأنت تشبه الآلهة وأنه لكي تريد أقل القليل هو أن تقترب شديدًا من الآلهة؛ لأن الطبيعة الإلهية مثالية، والاقتراب من الطبيعة

الإلهية هو الاقتراب من المثالية". وذات المعنى أيضًا نجده في محاورة ثياتيتوس حيث يقول: "فلنتشبه بالإله بقدر ما تسمح به قدرتنا".

تلك هي القضية الرئيسية عند سقراط، الاقتراب من الصورة الإلهية، والأخلاق الإلهية، ومحاولة التشبه بالآلهة، وتلك هي إحدى المعضلات التي كونت فلسفة سقراط وغزتها غزوًا، وكانت إحدى الأسباب الرئيسية في مثاليته.

فلم يكن يومًا مهتمًّا بمأكل أو مشرب أو ملبس، وإنما كان كل اهتمامه في النفس وما جُبلت عليه من فضائل وأخلاق تسمو بصاحبها.

يبقى التساؤل: هل أثرت دعوة سقراط إلى هذه الفضائل على سقراط ذاته وعلى عموم الشعب الأثيني؟

بمعنى آخر: هل أثارت هذه الدعوة إلى الفضائل مشكلات سياسية أو اجتماعية؟!

قطعًا أحدثت مناقشات سقراط بلبلة كبرى في أثينا، حيث كشف بمناقشاته أسرار جهل أدعياء الحكمة عند مشاهير أثينا في مختلف المهن والتخصصات، ومن ثمّ فقد اكتسب عداوة كل هؤلاء وأنصارهم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الشباب من تلاميذه أخذوا يقلدونه في اختبار أدعياء الحكمة، ومن ثمّ كانت التهمة الكبرى في انتظاره تحت مسمى "إفساد الشباب"..

لقد تمثلت المشكلة الرئيسية في أن جيل الشباب آمن بسقراط وبطريقته وبفكره، بالاختصار، آمن بكل ما أتى به سقراط، أما الشيوخ فقد نقموا عليه لأنهم ظنوه أتى مبدلًا للعقائد والأفكار السائدة، وتلك هي المشكلة على الدوام، قد تكون هي عين المشكلة التي تواجه الأنبياء، كما تروي لنا السير،

وهي عين المشكلة التي تواجه المصلحين في أي مكان؛ لذا ترى أفلاطون بعد أن تشبع بسقراط يندب حظ الفلسفة السيئ.

ولأشد ما انتقد سقراط النظام السياسي بأكثر الطرق سخرية، فيذكر زينوفون أنه قال: "إن الأمر الغريب جدًّا أن الراعي الذي يترك قطيعه يتناقص وينصرف إلى طريق الضلال لا يعترف بأنه راعي بقر مسكين؛ لأن الأغرب أن رجل الدولة الذي يدفع رعاياه من المواطنين إلى التناقص والانصراف إلى طريق الضلال لا يشعر بالخجل ولا يظن في نفسه أنه رجل دولة مسكين".

لكن السؤال: رجل ضحى بحياته في الحروب، وعرض حياته للخطر عندما توجَّه بكل شجاعة وأنقذ القبيادس، ثم عارض محاكمة الأرجينوساي، ثم عارض أن يأتي بأحد المنفيين ليحكم عليه بالإعدام، أهذه شجاعة أم تهور؟ طاعة للضمير أم عصيان للدولة؟

وبذات نهج التساؤل أيضًا: هل يمكننا إقرار أن دعوة سقراط إلى الفضيلة قادته من حيث لا يدري إلى معترك الحياة السياسية وأنجبت له المشكلات؟

لقد كان سقراط مؤهلًا بحكم عقله وفكره والتفاف الشباب حوله إلى أن يكون قاب قوسين أو أدنى من السلطة السياسية، كان بينه وبين المجد السياسي خطوة واحدة، ولكنه أبى أن يخطوها، لقد قارن بين مجد سياسي زائف وطاعة للضمير واجبة، وما كان مثل سقراط أن يُقدم شيئًا أبدًا على الضمير، مهما كان هذا الشيء، ومهما كان نعيمه.

ومن دعوة سقراط إلى الفضيلة، جاءت دعوته إلى خير ما في الحاكم من عفة واعتدال، ليكون الحكم للعقل لا للجسد، وتلك الرؤية تمثل اكتمال منظومة الفضائل عند سقراط فيما يذهب باركر: "وفي مقدورنا القول، إن

سقراط كان رجلًا مفكرًا سواء في مجال الأخلاق أو في مجال السياسة، وكما أن هيرقليطس قال في قديم الزمان: لقد بحثت في قرارة نفسي، كذلك كان سقراط ينشد هذا البحث والهداية الخبيرة بالحياة التي تستند على هذا البحث، ولقد اعترض على فكرة الاقتراع لأنها تتيح الفرصة للعجز كما تتيحها للكفاية، واعترض على حكم جمعية وطنية ذات سيادة يستوي فيها الجهلة بفن السياسة ومَن لهم دراية بهذا الفن، ولكل منهم صوت يساوي صوت غيره في الشئون العامة، بل إنه كان ناقدًا للساسة الأثينيين الذين يُهيمنون على الجمعية كما نستخلص من محاورتي مينون وجورجياس، من المحاورة الأولى تعرف أن هؤلاء الساسة كانوا في أحسن الفروض ذوي معرفة غريزية سياسية ولكنهم يعجزون عن إيصال هذه المعرفة إلى أبنائهم أو خلفهم، كما نستخلص من المحاورة الثانية أنهم في أسوأ الفروض، كانوا حكامًا ورعاة زائفين يملئون المدينة بالمرافئ والأرصفة والجدران والإيرادات، ويسعون إلى الشعبية بإرضاء الجماهير، ولكنهم ينسون الأشياء التي تدخل في نطاق العدالة والاعتدال، وعلى ذلك كان سقراط يدعو إلى أن إدارة الشئون السياسية في حاجة إلى معرفة وخبرة قائمة على مبادئ أولية".

ولعل ذلك ما يؤكد لنا أن دعوة سقراط إلى الفضيلة قادته من حيث لا يدري إلى الاصطدام بالسياسة على غير رغبة منه.

خامسًا: إعدام سقراط

من أين بدأت قصة الإعدام؟! ولماذا بدأت؟!

لـم يأتِ إعدام سـقراط فجأة، ولـم تكـن المؤامرة عليه، والتـي هي مؤامرة على الدولة بالأساس، وليدة يوم وليلة، بل هي صنيعة أيام وليالٍ طوال، صنعها الحقـد الذي يـأكل القلوب من ناحيـة، وصنعتها أخلاق سـقراط وفضائله من ناحيـة أخرى، كيف ذلك؟ لنذهب إذن إلـى مراحل ذاك الاغتيال الزنيم، لنرى كيف شارك سقراط ذاته فيه!!

أ- نص الاتهام:

سِيق سـقراط إلى المحاكمـة باتهاميـن.. الأول قديم، قدمه أرسـتوفانيس الهزلي التافه في مسـرحية "السحب"، حيث أساء تصوير سقراط وفقًا لتزاوجه مع سـلطة سياسـية قائمـة، وكان ملخص اتهامه كما ذكره سـقراط: "قد أسـاء سـقراط صنعًـا، وهو يصعـد البصر إلى السـماء وما تحتوي، ثـم ينفذ به تحت أطبـاق الثـرى، وهـو يُلبـس الباطل ثوب الحـق، ثم إنـه يبُث تعاليمـه هذه في الناس".

هذا هو الاتهام الأول..

أمـا الثاني فقد تعاقد ثلاثة من حاقدي القلوب وعلى رأسـهم مليتس الذي وصفه سقراط تأنيبًا لضميره إذا كان لديه ضمير، بأنه رجل طيب ووطني، ولكن

الحقيقـة، ما أبعده عن الطيبة والوطنية، وتقوم دعواه كما لخصها سـقراط ذاته في النص التالي: "إن سـقراط فاعل للرذيلة مفسـد للشباب، كافر بآلهة الدولة، وله معبودات اصطنعها لنفسه خاصة".

تلكم هي التهم التي تحاصر سقراط لتقدم إليه المنية على عجل!!

التهمة القديمة، سقراط يبحث في الطبيعة.

والتهمة الحديثة سقراط مفسد للشباب، كافر بالآلهة!! تلك هي التهم!!

وبالنظر إلى هذه التهم الثلاث نكتشف حقيقتين:

الأولـى: أن هـؤلاء المدعيـن لا يمتلكون أدنى ذرة من عقـل أو ضمير لأن عريضـة الاتهام التي قدموها لا تصلح أساسًـا لاتهام أحـد، فهم لم يفلحوا في تلفيق التهم.

إنهـم لو كانـوا يمتلكون أدنـى قدر من الـذكاء لاتهموا سـقراط مثلًا بتهمة "قلب نظام الحكم"، وهي تهمة يمكن صياغتها قانونيًّا على سقراط، كما أنها تبـدو أكثر قابلية عقلًا ومنهجًا لدى الجميع، حيث إنها يمكن أن تُقنع الجميع، وبالتالي يفقد سقراط كل تعاطف ممكن معه!!

ولكنهم لم يفعلوا، ولـم يحسنوا توجيه الاتهام، ولـم يحسنوا صياغة عريضة الدعـوى، ممـا يدل علـى أنهم جهـلاء، وجبنـاء، ولا يسـتطيعون تحمل أدنى مسئولية.

أمـا الحقيقـة الثانيـة، فتتمثـل فـي أن تهمـة الإلحـاد لم تكـن أبـدًا لتفضي إلـى الإعـدام، حيث يمتلـئ التاريـخ اليونانـي بإلحـاد بروديقـوس وأنطيفون وبروتاجـوراس وغيرهـم مـن الفلاسـفة السوفسـطائيين، ومع ذلـك لم يعدم

أحدهم، وهذا يدل على أن اتهام سقراط اتهام سياسي وليس ديني، وأن صياغة هذه التهمة بهذه الطريقة، فضلًا عن أنه ليس حقيقة، إلا أنه اتهام المقصود به إثارة الثائرة ضد سقراط، بقصد انفضاض الناس من حوله وعدم تعاطفهم معه؛ إذ إن الدين بالذات له قدسية في نفوس الناس، وعندما يتعارض كائنًا مَن كان مع المعتقد، فإنهم ينبذون هذا المتعارض ويعلون من شأن العقيدة.

إذن، كان يمكن توجيه تهمة قلب نظام الحكم إلى سقراط، ولكنهم ساقوا الدعوى بتهمتين، سقراط مفسد للشباب، كافر بآلهة الدولة.. ولماذا هاتين التهمتين بالذات؟!

لقد أحسنوا اختيار التهمتين بعناية، حيث لم يختاروا تهمًا قانونية بقدر ما اختاروا تهمًا تؤدي إلى النفير العام ضد سقراط.

فالتهمة الأولى، إفساد الشباب، هي تهمة بحق يمكن أن يصدقها الشيوخ والرجال المتقدمون في السن، حيث لم يسلم أحد منهم من امتحان تلاميذ سقراط، وبالتالي فعندما يسخر جيل الشباب من جيل الشيوخ، فحتمًا سيُفضي ذلك إلى كراهية موروثة لمثل هذا المعلم، كراهية قد تدفع أصحابها إلى التغاضي عن الحق، والعمل بكل ما تسعفهم قوتهم على التخلص من مثل هذا الرجل الذي هو قدوة لتلاميذه، وتاليًا فقد ضمنوا تعاطف أكبر قدر ممكن من الشيوخ مع هذه الدعوى.

أما التهمة الثانية فهي الكفر بالآلهة، وهم إنما قصدوا تعرية سقراط أمام الرأي العام من ناحية، كأن يقولوا لمحبي سقراط، أنتم تحبون في سقراط تدينه وخضوعه للآلهة، أما إنه كافر بالآلهة، فليس لحبكم له سبب، وليس لاحترامكم له مبرر، قد تكون هذه هي الرسالة التي أرادوا توصيلها لجماهير

سقراط عبر هذا الاتهام، ومن ناحية أخرى قصدوا بتلك التهمة أن ينفض الناس من حول سقراط، وألا يتعاطف معه أحد أثناء المحاكمة.

تلك هي التهم التي حيكت لسقراط وفُصلت بالضبط عليه، وأعتقد أن تلك الدعوى لم يشترك فيها ثلاثة فقط، أعلمهم يجهل أخص أمور السياسة كما يتضح من مناقشة سقراط له أثناء المحاكمة، فلا بد إذن وأنه قد اشترك أكثر من واحد في صياغة هذه الدعوى وفي اختيار هذه التهم التي تمس شغاف قلوب العامة، ولكن هؤلاء الثلاثة تبرعوا لأن تسجل أسماؤهم في سجلات الخزي الأبدي، فقبلوا تلك الصفقة، وارتاحت أنفسهم، واطمأنت ضمائرهم - إذا كانت لديهم ضمائر - إلى معاداة الحكمة في عقر دارها، وتلطيخ أيديهم بدماء زكية، هي أزكى دماء؛ لأنها دماء موكب المفكرين والشهداء.

وعلى أية حال، فقد أخذ سقراط هذه التهم، ووضع نفسه موضع المتهم فعلًا، وأخذ يدافع عن قضيته أمام ضمير العالم، ليوقظ البشرية من غفلتها، أو لتستعين بسقراط كلما ألمت بها محنة، أو أحاطت بها خطيئتها، لتستجدي من تلك الذكرى العطرة رائحة أرواح الشهداء.

ولكن يبقى السؤال الآن، هل ما ورد في دفاع سقراط من كلام سقراط ذاته؟! أم أن المضمون لسقراط والإبداع الفني لأفلاطون، وهو ما اختلف فيه العظماء على مدار التاريخ، ولكني أميل إلى قناعة شخصية كاملة بأن الحديث والتصوير والإبداع كله صنيعة سقراطية خالصة مائة بالمائة، رغم تعارض ذلك مع آراء الكثيرين، ومنهم الدكتور زكي نجيب محمود الذي يتساءل أيضًا بقوله: "ومع ذلك فقد يكون سقراط تحدث فعلًا بما رواه أفلاطون في هذا الدفاع، بل قد يكون استخدم كثيرًا من العبارات التي أوردها أفلاطون بنصها، لكننا رغم ذلك ينبغي أن نذكر أن أفلاطون قد أعمل فيها قلمه وفنه قبل كل

شـيء؛ لأنه لم يكن مؤرخًا حرفيًا للحقائـق، فلم يرد قط أن يكون حوار الدفاع سـجلًا يـردد فيه عبارة سـقراط بنصها، ولكنها إنشـاء محـض وتأليف خالص شـأنها في ذلك شـأن كل محاوراته، ولكنا نعود فنقول إن ذلك لا يمنع من أن تكون بعض عبارات سقراط قد رسخت في ذهن أفلاطون – وقد كان أفلاطون يشهد المحاكمة – فرددها دون قصد منه.. ومَن يدري؟ فلعل دفاع سقراط عن نفسـه كان أمتن وأروع من هذا الدفـاع الأفلاطوني، وإذن فنحن نريد بذلك أن نخلص إلى نتيجة، وهي أن محاورة الدفاع، تصوير صادق لشـخصية سقراط، ولكننا لا نستطيع أن نقطع في الرأي بأن هذه العبارة أو تلك قد نطق بها سقراط كما هي، أو أن هذه الحادثة أو تلك قد وقعت فعلًا بغير تحوير أو تحريف".

لكـن يبقى في النهاية – بإجماع الآراء – المضمون سـقراطيًا خالصًا، على الرغم من إيماني بأن الشكل قبل المضمون نتاج سقراطي خالص.

قيل أيضًا إن هذا الدفاع من محض إبداع عقل أفلاطون ليدافع عن أسـتاذه أمام الأجيال القادمة!!

وعلـى فرض صحـة هذا الـرأي فما أعظـم أفلاطون، ومـا أعظم إخلاص التلميذ للأسـتاذ! ولكن السؤال: يدافع عن أي شيء وعن أي تهمة؟ وهل هذه التهم في حاجة بالأساس إلى الدفاع عنها، لولا جذورها السياسية؟

تلـك هـي الحقيقة، وذاك هـو المنتظر من أثينـا، تلك التي تتمتـع بالحكمة والفلسـفة، فكيف دافع سـقراط إذن عن هذه التهم الباطلـة؟! وهل كان دفاعه دفاعًـا عقليًا، أم أنه اسـتخدم نفس أسـلوب مقيمي الدعـوى، الذين لعبوا على أوتـار عاطفـة النـاس، فلعب هو أيضًا علـى ذات الأوتار؟! أم أنه ظل سـقراط رجل المبادئ والقيم دون أن يغيره موقف السجن والسجان؟!

ب- الدفاع:

في البداية تستشعر أنك حقًّا تقف في المحكمة، وقد حضر جمع غفير في مشهد مهيب، ليروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم سقراط، أعظم مَن عرفوه في حياتهم يقف خلف القضبان هادئًا كعادته، ثابتًا كشأنه على الدوام، غير خائف أو متكالب على الدنيا أو مذعور من الموت، يقف وهو متهم، ويعلم أن الساسة أجمعوا على ضرورة الخلاص منه، ومع ذلك، وبكل رباطة جأش، يُفاجئ الحضور بقوله: "أما أنا فخذوا الحق مني صراحًا، ولن أصوغها عبارة خطابية منمقة كما فعلوا - يقصد مقيمي الدعوى - لا والله، بل سأسوق الحديث والأدلة إليكم عفو ساعتها لأني على يقين من عدالة قضيتي، فلن أقف يومًا بينكم أيها الأثينيون موقف الخطيب الصبياني ما دمت حيًّا، فلا يرجون الآن أحد مني خطابًا".

كلمات، بميزان العقل البحت، لو لم يقُل سقراط غيرها لكان جديرًا بالقضاء أن يبرئه.. إنها ميزان الحقيقة، ولُب الشخصية، وجوهر الفلسفة.. ويأخذ سقراط الحديث بمنطق الترتيب، فيرد على الفئة الأقدم..أولئك الذين اتهموه بالبحث في الطبيعة، ليقول لهم: "أيها الأثينيون، الحق الصراح أني لا أتصل بتلك الدراسات الطبيعية بسبب من الأسباب، ويشهد بصدق قولي كثير من الحضور، فإليهم أحتكم، انطقوا إذن يا مَن سمعتم حديثي وأنبئوا عني جيرانكم، هل تحدثت في مثل هذه الأبحاث كثيرًا أو قليلًا؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا في سائر الاتهام بصدق ما يقررون في هذا الجزء".

وعلى فرض عدم صحة ما قاله سقراط، فهل يكون ما قاله كسينوفون غير صحيح أيضًا؟! لقد نقل كسينوفون عن سقراط أنه عد تلك الدراسات ضربًا

من الجنون فيقول: "وكما يختلف المجانين فمنهم مَن لا يخاف مما يخيف، ومنهم مَن لا يستحي من التلفظ أو من عمل أي شيء أمام الناس، ومنهم مَن لا يحترم المعبد ولا الهيكل ومَن لا يُهدي أي شيء إلى الآلهة، ومَن يعبد الحجارة والحيوان، كذلك نجد أولئك الذين يبحثون في الطبيعة بعضهم يعتقد في أن كل الأشياء في صيرورة دائمة وبعضهم الآخر يلغي الحركة وبعضهم يرى أن كل الموجودات قد حدثت وستفنى، وبعضهم يرى ألا وجود ولا فناء".

وأيضًا نجد ذات الشهادة عند أرسطو، حيث ينفي اتصال سقراط بالدراسات الطبيعية، فيقول: "لقد انصرف سقراط عن البحث في الطبيعة كلية وعكف على دراسة الموضوعات الأخلاقية، وفي هذا المجال كان يُعنى بالكلي وكان أول مَن أقام العلم على التعريفات".

أيضًا يذكر سارتون أن سقراط قد التقى مع حكيم هندي وسأله الحكيم قائلًا: "إنك تدعو نفسك فيلسوفًا فبماذا تشتغل؟"، فأجاب سقراط بأنه يدرس الشئون البشرية، فضحك الحكيم الهندي وقال: "إنه يستحيل للمرء أن يفهم الشئون البشرية ما لم يدرك الشئون الإلهية أولا".

وهذا يدل على أن سقراط كان بعيدًا كل البعد عن الاشتغال بالعلوم الطبيعية أو الميتافيزيقية.

لكن يبقى السؤال أيضًا، لماذا هذه التهمة بالذات التي اختارها أرستوفانيس، ربما يكون السبب المباشر لتلك التهمة افتراض صدق الرواية التي تقول إن سقراط قد قرأ كتابًا لهرقليطس، ولما سُئل عنه قال: "إن ما فهمته يبدو عظيمًا، أما ما لم أفهمه فيبدو أعظم"، كذلك يرجح بعض المؤرخين قراءته لكتاب أنكساجوراس، إذ كان يُباع بدراخمة واحدة في عصره، فلعل ذلك هو ما

دفع أرستوفانيس إلى اتهام سقراط بتلك التهمة، ولعل سقراط ذاته هو الذي سمح لمثل أرستوفانيس بأن يسخر منه؛ إذ إنه لم يكن يأبه بالشعراء أو كاتبي المسرحيات الهزلية عنه، وهم يسيئون إليه، بل إن تراكمات سخريتهم قادته بطريقة أو بأخرى إلى طريق سار به في اتجاه الاغتيال.

إجمالًا، لم يهتم سقراط بعلوم الطبيعة، لانشغاله بعلوم أسمى من ذلك قطعًا، علوم يمكننا أن نسميها "كيفية إسعاد البشر"، إنها العلوم الاجتماعية البشرية، وهذا ما يوضحه سارتون: "لنكن أكثر تواضعًا من علماء الطبيعة وأكثر أمانة من السوفسطائية، فالمعرفة التي ينبغي أن نسعى للحصول عليها يجب أن تتكيف بحسب حاجاتنا الشخصية والاجتماعية، والمهم هو أن نعرف كيف نحيا حياة سعيدة وشريفة وأن نكون مواطنين أخيارًا".

تلك هي القضية، أن نعرف كيف نحيا حياة سعيدة وشريفة، حياة تخلو من مغالطات السوفسطائيين، وتخلو من ألاعيبهم اللغوية واللفظية، وتخلو من أي بحث عن أي شيء سوى الحقيقة والشرف، تلك هي خلاصة رؤية سقراط.

إفساد الشباب:

تلك هي التهمة الأولى التي صاغتها دعوى الاتهام الحديثة ضد سقراط، فاعل للرذيلة مفسد للشباب، وربما مسألة فاعل للرذيلة لا تنفصل عن إفساد الشباب، فالمقصود بهما واحد؛ لذا فسوف نجد سقراط يركز حديثه على أنهما تهمة واحدة، المقصود بها الإمعان في إفساد الشباب، واعتبار ذلك الإفساد فعلًا للرذيلة المنهي عنها.

والقصد المباشر من هذا الاتهام - كما سبق القول - هو إثارة الرأي العام كله ضد سقراط، وكأن مقيمي الدعوى أرادوا أن يقولوا للجميع: "سقراط

هذا مفسد لأولادكم، فإما أن تنزعوا عنه ولاءكم وتعاطفكم وإما سيُهلككم وأولادكم".

لكن السؤال: ما هي بداية اتهام سقراط بإفساد الشباب؟!

تأتي البداية منذ إنباء الكاهنة بحكمة سقراط، إذ أراد سقراط أن يتحقق من صدق قولها بنفسه؛ لذا يقول هو عن نفسه: "ففكرت وأمعنت في التفكير حتى انتهيت آخر الأمر إلى طريقة أتحقق بها من القول، اعتزمت أن أبحث عمَّن يكون أحكم مني، فإن صادفته أخذته نحو الإله لأرد عليه ما زعم، فأقول له: هاك رجل أكثر مني حكمة، وقد زعمت أني أحكم الناس؛ لهذا قصدت إلى رجل من الساسة عُرف بحكمته، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة التالية: لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت في نفسي عقيدة بأنه لم يكن حكيمًا حقًّا، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة، وعلى الرغم ممَّا ظنه هو نفسه في حكمته، وقد جاوز به الغرور شهادة الشاهدين فحاولت إقناعه بأنه وإن يكن قد ظن في نفسه الحكمة إلا أنه لم يكن بالحكيم الحق، فأدى به ذلك إلى الغضب مني، وشاطره في غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث، فغادرته قائلًا في نفسي: إني وإن كنت أعلم أن كلينا لا يدري شيئًا عن الخير والجمال، فإنني أفضل منه حالًا؛ لأنه يدعي العلم وهو لا يعلم شيئًا، أما أنا فلا أدري ولا أزعم أنني أدري، ولعلي بهذا أفضله قليلًا، ثم قصدت إلى آخر وكان أعرض من سابقه دعوى في الفلسفة، فانتهيت معه إلى النتيجة نفسها، وعاداني هو الآخر، وأيده في موقفه عدد كبير.

أخذت ألتمس الناس رجلًا فرجلًا وأنا عالم بما أُثيره في الناس من غضب كنت آسف له وأخشاه، ولكنها ضرورة لم يكن عن المضي فيها محيص، إنها كلمة الله، ويجب أن أحلها من اعتباري المكان الأسمى، فقلت لنفسي لا بد

أن أحاور أدعياء العلم جميعًا لعلي أفهم ما قصدت إليه الراعية، وأقسم لكم أيها الأثينيون إنني قد انتهيت من البحث إلى ما رويت، إني وجدت أن أشهر الناس أكثرهم غباءً، وقد صادفت فيمَن هم دون هؤلاء مقامًا رجالًا بلغوا من الحكمة ما لم يبلغه هؤلاء".

تلك هي البداية مع تهمة إفساد الشباب..

وذاك هو السبب الرئيسي في رفع هذه الدعوى بهذه الصيغة.. ولكنها على أية حال خالية من كل مضمون، إذ ليس بها من الحق أكثر ممَّا في سابقه، فكيف برجل لا يأخذ أجرًا على التعليم ولا يهتم بأمر نفسه ولا بيته، بل لا يبالي بمظهره وثيابه، كيف برجل تلك هي طباعه يفسد الشباب وقد أخبرت الآلهة عن حكمته.

لكن كيف يدفع سقراط عن نفسه هذه التهمة، لقد وقف أمام المحكمة كالأسد الجسور.. خرجت كلماته لتشق هواء القضاة المسموم بعبث السياسة قائلًا: "أما أن الشبان الأثرياء الذين لا تضنيهم شواغل الحياة كثيرًا قد التفوا حولي، فهم قد جاءوا يسعون من تلقاء أنفسهم ليشهدوا امتحان الأدعياء، وكثيرًا ما انطلقوا بدورهم يلتمسون أدعياء الحكمة ليجروا عليهم التجربة نفسها، وما أكثر ما صادفوا رجالًا ظنوا في أنفسهم العلم، فإذا بهم لا يعلمون إلا قليلًا، أو هم لا يعلمون شيئًا، فلا يلبث هؤلاء الذين امتحنهم الشباب أن يصبوا عليَّ جام غضبهم، وأنفسهم أحق بهذا الغضب ويستنزلون اللعنة على سقراط لأنه أفسد الشبان، فإن سألهم سائل فيمَ هذه اللعنة، وأي جريرة أتى وأي رذيلة علّم؟ لما حاروا جوابًا لأنهم لا يعرفون لغضبهم سببًا، ولكي يستروا علائم الحيرة تراهم يعيدون التهم المعروفة التي قذف بها الفلاسفة

جميعًا، من أنهم يعلمون ما يتصل بالسحاب الحق، والحقيقة أنهم جاهلون ويأبون الاعتراف بجهلهم المكشوف".

إذن الشباب شاركوا سقراط، وليس سقراط هو الذي شارك الشباب، بمعنى أن سقراط هو الفاعل الأصلي، والشباب فاعل مساعد دخلوا على الفاعل الأصلي فتعلموا طريقته وقاموا بفعله، إذن فما ذنب سقراط، هل يحاسب على ذنب لم يفعله، وهل يملك كائنًا مَن كان أن يحاسب أي إنسان على حب الناس له، ومع ذلك يستخدم سقراط حلمه وأناته، ويستدعي صبره وورعه، ويتحدث بلسان المنطق الذي عهدناه عليه دومًا فيقول للقضاة بشأن تلك التهمة: "إحدى اثنتين، إما أنني لا أفسد الشباب، أو أنني أفسدهم عن غير عمد، وسواء أصحت هذه أم تلك فأنت كاذب في هاتين الحالتين، فإن كانت جريمتي بغير عمد فلا يُحاسب عليها القانون، وكان خليقًا بك أن تسدي لي النصح خالصًا، محذرًا ومؤنبًا في رفقٍ ولين، فإن انتصحت بك أقلعت ولا ريب عمَّا كنت آتيه بغير قصد، ولكنك أبيت لي نصحًا وتعليمًا، وآثرت أن تجيء بي متهمًا في ساحة القضاء وهي محل العقاب لا مكان التعليم".

حقًّا، هذا هو الأوجب، لو أذنب سقراط، فالأولى بأرباب العقول إذا كانت لديهم عقول بالأساس أن يقدموا النصح بشفقة ولين إلى سقراط لا أن يسوقوه إلى المحكمة.

ولكن لأن جذور هذه الدعوى سياسية بالأساس، فليس من مفر من المحاكمة، ولا بد وأن يموت سقراط، لدرجة تجعلنا نقول إن سقراط لم يصل إلى الاغتيال عبر السياسة، على الرغم من عدم اشتغاله بها كما أكد في دفاعه، ولكن تلك الجذور السياسية قادته إلى التصفية الجسدية في صورة محاكمة، حيث يذكر التاريخ الأثيني أنه في عام 411 ق.م، قامت ثورة مدعومة بالجهود

الإسبرطية وأسقطت حكم الديمقراطية، وأقامت نظامًا ديكتاتوريًّا مستبدًّا، وفي عام 401 ق.م، أي قبل المحاكمة الشكلية بعامين أوشكت الثورة الثانية أن تنجح حيث كان الشباب الأثرياء الذين هم تلاميذ سقراط بالأساس قد لعبوا دورًا مهمًّا في هذه الأحداث السياسية، ومن هنا كانت التهمة "إفساد الشباب".

إنه إذا فسدت السلطة وغاب الضمير وتلاشت الأخلاق وطُبع على القلوب وضلت الأفئدة فإن أرباب تلك السلطة لا يدخرون وسعًا في الكيد لأعدائهم والتنكيل بهم، فالتهم جاهزة ومغلفة، وأساتذة تفصيل القوانين على أتم الاستعداد دائمًا.

ولكن سقراط أيضًا يدفع هذه التهمة بمنطقٍ واعٍ، ورأي سديد، فيذكر للقضاة أسماء بعض طلابه وذويهم الذين يحضرون المحاكمة، ليسألهم القضاة هل أفسدهم سقراط حقًّا؟ وهذا منطق رائع، وتاليًا، إما أن يدعموا بشهادتهم موقف سقراط، وإما أن يقفوا إلى جوار دعوى مليتس، يقول سقراط: "ولو كنت أفسد الشباب حقًّا، وكنت قد أفسدت بعضهم فعلًا لوجب أن يتصدى منهم للانتقام أولئك الذين تقدمت بهم السن فأدركوا ما نفثت لهم في نصحي من سوء أيام الشباب، فإن لم يفعلوا ذلك بأنفسهم وجب أن ينهض ذوو قرباهم أو آباؤهم أو إخوانهم، أو مَن إلى هؤلاء فيقتضيني ما أنزلت بأبنائهم من سوء، ها قد حان حينهم"، ثم يستطرد فيذكر بعض الأسماء، ثم يقول: "ويمكنني أن أذكر غير هؤلاء كثير ممَّن كان لزامًا على مليتس أن يقدم منهم للشهادة مَن يشاء في سياق دعواه، ومع ذلك فادعوه الآن يستشهدهم إن كان قد فاته ذلك أولًا، وسأفسح له الطريق، سلوه هل بين هؤلاء مَن يشهد له فيقدمه؟ كلا أيها الأثينيون، فنقيض ذلك هو الصحيح، إذ هؤلاء لا يأبون أن يؤيدوا

بالقول ذلك المتلاف الذي أفسد ذويهم – كما يسميني مليتس وأنيتس – إني لا أستشهد الشبان الذين أفسدتهم فحسب، فقد يكون عند هؤلاء ما يحيد بهم عن الحق، ولكني أستشهد ذويهم، وهم بعيدون عن إفسادي، ويكبرون أولئك سنًّا، فلماذا يظاهرونني بشهادتهم، إلا أن يكون ذلك تأييدًا للحق والعدل، فهم يعلمون أني أقول الصدق، أما مليتس فمفترٍ كذاب".

والسؤال الآن: هل كان سيخسر القضاة شيئًا إذا ما أخذوا حديث سقراط في اعتبارهم وسألوا هؤلاء الشباب الحضور؟ ألا يغير ذلك من سير القضية؟!

ولكنهم لم يفعلوا؛ لأن الأوامر كانت قد سيقت إليهم بحتمية اغتيال سقراط، وبالتالي فلا بد وأن يصموا آذانهم ويستغشوا ثيابهم عن كل دليل قد يفضي بصورة أو بأخرى إلى براءة سقراط، والذي لم يتوانَ عن سوق الأدلة العقلية على براءته، ولكن إرادة المحكمة أبت أن تستمع إلى صوت العقل، وأبت إلا إعدام سقراط، يقول الدكتور زكي نجيب محمود ما نصه: "ولكنه إن لم يقُم بقسطٍ وافرٍ من شئون الدولة، فقد أنفق أيامه في تعليم مواطنيه تعليمًا لم يؤجر عليه، تلك كانت رسالته، فسواء انقلب تلاميذه أخيارًا أم أشرارًا فليس من العدل في شيء أن يُتهم بجريرتهم؛ لأنه لم يعدهم قط بأن يعلمهم شيئًا، فكان لهم أن يُقبلوا عليه إن شاءوا وأن ينفضوا من حوله إذا أرادوا، ولكنهم شاءوا لأنفسهم أن يلتفوا حوله لأنهم أحسوا لذة عظيمة في الاستماع إلى أدعياء الحكمة يمتحنون فيفتضح أمرهم، فلو كان سقراط قد أفسد هؤلاء الشباب لقضى الواجب على ذويهم من الشيوخ – إن لم يكن واجبهم هم – أن يتقدموا إلى المحكمة بالشهادة ضده، وهنا يقول سقراط في شيءٍ من التحدي، إن الفرصة لا تزال سانحة لكائنٍ مَن كان منهم أن يتقدم إلى القضاء بشهادته،

ولكـن العجيب أن آباء هؤلاء الشبان وأقرباءهم جاءوا إلـى المحكمة ليبرئوا ساحة سـقراط من تهمة الإفساد، وإذن هؤلاء جميعًا ألسـنة ناطقة بأن سقراط إنما يقول الحق، وإذن مليتس مفترٍ كذاب".

إذن سـقراط سـار بدفاعه في اتجـاه عقلي بحت ليس فيـه عاطفة وليس فيه تورية، بل اسـتند إلى أسـانيد عقلية بديهية لا يسـتطيع العقـل إلا أن ينحني لها احترامًـا ويأخـذ بها، ولكن فـي ذات الوقت الذي يخاطب فيه سـقراط العقل، يبتعـد مقيمو الدعوى عـن كل عقل، وكل منطق، إذ يقول مليتس لسـقراط في حـواره معـه إن كل الناس يُصلحـون الشـباب إلا هو، فهو وحده الذي يفسـد الشباب وكم في هذا الاتهام من مغالطات منطقية!!

إذ مـا يكـون المصلحون عادة أكثر من المفسـدين، ولكـن مقيمي الدعوى ضد سقراط يصممون على أن الجميع يُصلح الشباب إلا سقراط، فهو المفسد الوحيد، وهذا يعني جهل أولئك المدعين بأبسـط حقائق الاستقراء المنهجي، فعلى فرض أن الجميع مصلحون، فإن إفسـاد سـقراط لن يؤثر، وعلى الفرض الآخر، أن إفسـاد سقراط أبلغ أثرًا من إصلاح الجميع، فمعنى ذلك أن سقراط أبلغ حجة وأعظم أثرًا، فكيف يُتهم بالإفسـاد إذن؟! ألا يدل هذا الدفاع العقلي الممنهج على براءة سقراط وإدانة خصومه؟!

ومـن ناحيـة أخـرى، ألا تدل تلـك المحاكمـة الظالمة على أهلية سـقراط للخلود الأبدي واستحقاق خصومه للخزي والعار؟!

إنهـا للأسـف مقارنة بيـن مزاجيـن مختلفيـن، وغايتيـن مختلفتيـن تمام الاختـلاف، وتاليًـا فالمقارنـة بيـن سـقراط وخصومـه، هـي مقارنة فاسـدة منطقيًا.

أما عن التهمة الثالثة "الإلحاد" فليس لها نصيب من الصحة أكثر مما للتهمتين السابقتين، وليس فيها من المنطق أو العقل إلا إذا تخيلنا تعقل المجنون!!

ولكن عذر الخصوم في ذلك أنهم أرادوا أن يقوموا بعملية تعبئة عامة للشعب ضد سقراط فلم يبحثوا عن صدق أو صحة الدعوى، بقدر ما بحثوا عن تهييج الناس ضد سقراط بقدر ما تسعفهم القوة.

وإلا، فأي عقل هذا الذي يقرأ عن سقراط أنه لا تخلو عبارة من عباراته إلا وفيها اسم الله، ألم يقل: "أيها الأثينيون أنا أحبكم وأمجدكم، ولكني لا بد أن أطيع الله أكثر مما أطيعكم"؟ ألم يقل سقراط: "بني أثينا، كم كان سلوكي عجيبًا لو أنني عصيت الله فيما يأمرني به".

ألا تدل هذه العبارات على تدين الرجل وانصياعه لإرادة ومشيئة الآلهة؟!

ألم يقل سقراط بالعناية الإلهية التي تحيط بالإنسان وتحفظ حياته؟! فهل يستقيم القول بالعناية الإلهية والإلحاد في وقت واحد؟!

لقد صور زينوفون سقراط وهو يدخل في مجادلات طويلة مع الملحدين أمثال أرستوديموس ليبين له أن العناية الإلهية منتشرة في كل أنحاء الوجود، فقد جاءت كل الأشياء من أجل غاية محددة، وهي صنيعة عقل مدبر خلق الجنس البشري على صورة حسنة أسمى من كل الموجودات، من ذلك مثلًا الجسم البشري وما يحويه من عناية فائقة وإعجازات بالغة، يقول سقراط: "إننا لو تأملنا كل شيء في الوجود لرأينا كيف تعمل العناية الإلهية عملها فيه، من ذلك جسم الإنسان وما يحويه من حسن تنظيم وإبداع خلقة، حيث يتجلى هذا التنظيم في وظائف أعضاء الجسم، فالعين مثلًا ترى ما أُعد للرؤية،

والأذن تسمع ما أُعد للسمع، ثم كيف ستكون قيمة حاسة الشم إذا لم يكن هناك فتحتان أو ثقوب الأنف؟ وما هو الإدراك الذي كنا سنشعر به من الطعم الحلو والحامض، وكل ما هو لذيذ التذوق، إذا لم يكن بداخل الفم لسان يشعر بهذه المذاقات؟ والعين لها جفون حارسات كالأبواب، فلا الرياح تؤذيها ولا يتساقط عليها العرق، والأسنان أيضًا دليل إبداع، فالأمامية منها معدة للقطع، والخلفية لاستقبال الطعام وطحنه، فهل هناك من شك في أن وضع هذه الأشياء يُظهر صانعًا حكيمًا ذا قدرة أراد الخير للإنسان؟!".

أفي كل هذا الكلام، وهذه الدلائل، يظهر أي إلحاد من قريب أو بعيد؟!

أكان مليتس وليقون وأنيتس قد فقدوا عقولهم ليُلصقوا تهمة باطلة كهذه بسقراط؟ أم أن دافع الحقد قد أعمى عيونهم عن كل حقيقة؟!

وعلى أية حال، يدفع سقراط عن نفسه هذه التهمة أيضًا دفعًا عقليًّا منطقيًّا بحتًا لا دخل فيه للعاطفة، فيسأل مليتس قائلًا له: "أيستطيع أن يؤمن إنسان برسول ووحي إلهي، ولا يؤمن بالأرواح نفسها أو بأشباه الآلهة؟".

سؤال منطقي بحت، فمليتس يدّعي أن هناك معبودات اصطنعها سقراط لنفسه، وأنه يؤمن بروح خفية تأتيه، وبالتالي كان السؤال منطقيًّا: هل يعتقد أن يؤمن شخص بأرواح خفية ثم يكفر بالآلهة؟ إنه لمنتهى التناقض غير المحبوك، وغير المقبول، ولكنه الحقد لا أكثر، كما يصف ذلك سقراط بنفسه قائلًا: "ولست أشك أيها الأثينيون في أن مليتس هذا مستهتر وقح، كتب هذه الدعوى بروح من الحقد والطيش والغرور، ألم يبتكر هذه الألعوبة ابتكارًا ليقدمني بها إلى المحاكمة".

ولكن سقراط التمس لمليتس العذر أيضًا بسماحة ونبل أخلاقه، حيث

لفت نظره إلى أنه ربما يكون قد خلط بينه وبين أنكساجوراس الذي قال إن الشمس والقمر كتلتان متحجرتان، ثم يدفع أخيرًا تهمة الإلحاد برمتها بقوله: "ولكن لن يجوز على مَن يمتلك ذرة من فهم، قولك هذا بأن رجلًا يعتقد في أشياء إلهية هي فوق مستوى البشر، ولا يؤمن في الوقت نفسه بأن هناك آلهة وأشباه آلهة وأبطالا".

فالدعوى فاسدة إذن منطقيًّا وأخلاقيًّا، ولا تعرف ناحية واحدة من نواحي الصلاح. لكن يبقى السؤال الآن: إذا أفلح سقراط في دفع هذه التهم عنه بطريقة عقلية منهجية، وإذا كانت هذه التهم باطلة وفاسدة منطقيًّا، فلماذا سِيق سقراط إلى المحاكمة بالأساس؟

لماذا يُحاكم سقراط؟

يتحول مجرى الحديث الآن من الموضوع إلى الذات، من المحاكمة ذاتها وفسادها وبطلانها إلى البحث عن الأسباب الحقيقية التي لأجلها سيق سقراط إلى المحاكمة بالأساس، تلك الأسباب التي تُكون في مجموعها أسرار تلك المحاكمة.

1- الأسباب السياسية:

ربما سيق سقراط إلى المحاكمة لتهم سياسية، أهمها أنه كان يتسبب في إحراج الساسة والمشاهير من مدعي العلم والمعرفة، حيث كان سؤال سقراط هادفًا، وفرق كبير بين سؤال هادف، وسؤال غير هادف، بين أن تسأل لتعرف، فتكون غاية السؤال تحقيق المعرفة، وبين أن تسأل لتصحح مسار فكر الآخرين، فتكون غاية السؤال التوجيه والتقويم، وسؤال سقراط كان من هذا النوع، مما كان يسبب حرجًا شديدًا للمدعين للمعرفة.

فربما سيق سقراط إلى المحاكمة لهذا السبب، خاصة وأن تلاميذه ساروا يمتحنون الأدعياء تمامًا مثل سقراط.

وربما كانت مواقف سقراط السياسية التي حكى عنها بنفسه في دفاعه سببًا في نسج تلك المحاكمة خاصة وأن سقراط ذاته لوح إلى ذلك، من ذلك مثلًا موقفه من حكومة الثلاثين الذين عدوه في النهاية خائنًا للدولة، وهو ما حكاه سقراط بنفسه قائلًا: "سأقص عليكم قصة تشوقكم أو لا تشوقكم، ولكنها مع ذلك حق، إنني لم أشغل منصبًا إلا مرة واحدة عضوًا في مجلس الدولة، وكانت رياسة المجلس عند محاكمة القواد الذين لم ينقذوا جثث القتلى بعد موقعة أوجنيس لقبيلة أنتيوخس - وهي قبيلتي - فرأيتم أن تحاكموهم جميعًا، وكان ذلك منافيًا للقانون كما أدركتم ذلك جميعًا فيما بعد، ولكني كنت إذ ذاك وحدي بين أهل بريتان أعارض الافتئات على القانون، وأعلنت رأيي مخالفًا لكم، ولما تهددني الخطباء بالحبس والطرد، وصحتم جميعًا في وجهي آثرت أن أتعرض للخطر مدافعًا عن القانون والعدل على أن أساهم في الظلم خشية السجن أو الموت، حدث ذلك في عهد الديمقراطية، فلما تولى زمام الأمر الطغاة الثلاثون أرسلوا إليَّ وإلى أربعة معي، وكنا تحت السقيفة، فأمرونا أن نسوق إليهم ليون السلامي من بلدة سيلامس لينزلوا به الموت، وذلك مثل لأوامرهم التي اعتادوا أن يلقوها لكي يشركوا معهم في جرائمهم أكبر عدد ممكن من الناس، فبرهنت لهم قولًا وعملًا أني لا أعبأ بالموت، وأنه لا يزن عندي قشة، إن صح هذا التعبير، وأن كل ما أخشاه هو أن أسلك سلوكًا معوجًا شائنًا، فلم أرهب طغيان تلك العصبة الظالمة، ولم تضطرني إلى ركوب الخطأ، فلما أُخرجنا من السقيفة حيث كنا، ذهب الأربعة الآخرون إلى سيلاميس في طلب ليون، وكدت أن أفقد حياتي

لقاء ذلك العصيان لولا أن دالت دولة الثلاثين بعد ذلك بقليل وما أكثر مَن يشهدون بصدق ما أقول".

هذه حكاية سياسية بحتة، فلماذا ذكرها سقراط في دفاعه؟!

لا أرى سببًا لذكرها غير أن سقراط أراد أن يلمح إلى السبب الحقيقي الذي لأجله تتم محاكمته، فالأحداث السياسية المتراكمة قادته إلى قدر الخلود من حيث لا يدري.

ويذكر التاريخ الأثيني ما يؤيد صحة رواية سقراط تلك، حيث يذكر صاحب "دستور الأثينيين" أن الشعب بعد أن حاكم القواد العشرة الذين تركوا الجثث تغرق، انهزمت أثينا في موقعة أبجوس بوتاموس، وأصبح لوساندروس بعد الهزيمة سيد أثينا فأقر فيها حكومة الثلاثين الأرستقراطية.

وقد قامت هذه الحكومة في بادئ أمرها على العدل، فقضت على القوانين التي تقي حرية المواطنين، وكذا قضت على السوكوفانتس واكتسب الشعب الثقة فيهم، وتوسم المواطنون فيهم حسن التدبير والإدارة، ولكنهم لم يكادوا يشعرون بأن سلطانهم قد أصبح ثابتًا مؤيدًا من الجماهير حتى أظهروا سوء نيتهم، فلم يرعوا لمواطن حرمة أو قرابة، بل قتلوا كل عضو في المدينة يبدو عليه الثراء أو النبل أو الرأي، وقد أُحصي مَن قتلوا في آنٍ قصير فكانوا لا يقلون عن خمسمائة وألف قتيل.

فربما سيق سقراط إلى المحاكمة بسبب هذه المواقف السياسية، وليس ذلك بالظن ولكنه باليقين، فقد كان سقراط بوقًا ينتقد الديمقراطية الأثينية التي كانت تفترض أن أي إنسان يصلح لشغل أي منصب، كما كان ينتقد الأنظمة السياسية المتعاقبة، ولا يمكننا فهم قصة الإعدام إلا في ضوء السياسة.

إذن، كانت السياسة هي المدخل الحقيقي للتفكير في اغتيال سقراط، ولم يتطرق سقراط إلى الحديث عنها في دفاعه إلا ليلفت نظرنا إلى الأسباب الحقيقية وراء مؤامرة الاغتيال تلك.

2- الاتهام بالفلسفة:

قطعًا هي مشكلة كل عصر، ومشكلة كل البلاد، الاتهام بالفلسفة أو التفلسف والقيام وفق رؤية فلسفية بمحاولات إصلاح جذرية.

فربما سيق سقراط إلى المحاكمة لأنه متهم بالفلسفة فيما يقول هو: "قد يُقال عن رجل إنه حكيم، ولكن الأثينيين فيما أحسب لا يُكلفون أنفسهم عناءً بشأنه إلا إذا أخذ يبث في الناس حكمته، عندئذٍ يأخذهم الغضب لسبب ما، وقد يكون لغيرة فيهم"، ولعل هذه العبارة صادقة في كل قوم وكل بلد، فالناس متسامحون ما دمت تقصر علمك على نفسك، أما إذا علمتهم إياه وكان مخالفًا لما درجوا عليه من علم فإنهم لا يدخرون وسعًا في المعارضة.

ولعل هذا هو السبب عينه الذي ترك عميق الأثر في أفلاطون عندما ندب حظ الفلسفة قائلًا: "وهكذا تُترك فتاة تخلى عنها أقرب الناس إليها، وعلى حين يحيا أنصارها حياة زائفة لا تليق بهم، فإن حرمان الفلسفة من أهلها القادرين على حمايتها يشجع الدخلاء على اقتحام دارها وتلطيخ شرفها، فينسبون إليها تلك العيوب التي ذكرتها، وهي أن أهلها منهم مَن لا يصلح لشيء، والباقون وهم الأكثر يستحقون أشد العقاب".

ولعل نداء أفلاطون بضرورة الحاكم الفيلسوف كان ثمرة لذلك الألم النفسي الكبير، كما أنه يُعد انتصارًا كبيرًا للفلسفة، وهنا يقول باركر: "يبدو لي أن النظرية السياسية للجمهورية تبدأ من أفكار سقراطية وتنتهي إلى نتائج أفلاطونية".

وربما سيق سقراط إلى المحاكمة أيضًا لأنه ناصح أمين لقومه، مثلما قال وشبه نفسه بالذبابة اللاذعة: "وإن جاز أن أسوق إليكم هذا التشبيه المضحك لقلت إني ضرب من الذباب الخبيث، أنزله الله على الأمة، التي هي بمثابة جواد لنبيل عظيم ثقيل الحركة لضخامته، ولا بد له في حياته من حافز، أنا تلك الذبابة الخبيثة التي أرسلها الله إلى الأمة، فلا شاغل لي متى كنت وأنَّى كنت، إلا أن أُثير نفوسكم بالإقناع والتأنيب، ولما كان من العسير أن تجدوا لي ضريبًا فنصيحتي لكم أن تدخروا حياتي، نعم قد أكون مزعجكم كلما باغتكم فأيقظتكم من نعاسكم العميق، ولكم أن تأملوا، إذا ما صفعتموني صفعة الموت، كما ينصح أنيتس، وما أهون ذلك عليكم، أن يهدأ لكم الرقاد بقية حياتكم دون أن يبعث لكم الله ذبابة أخرى إشفاقًا عليكم".

فقد يكون هذا الأسلوب السقراطي قد صنع له العداء؛ لذا سيق إلى المحاكمة التي أقل ما يُقال عنها إنها باطلة وظالمة.

3- الحقد الذي يأكل القلوب:

ربما سيق سقراط إلى المحاكمة بسبب الحقد، فهو سبب كافٍ جدًّا لتقديم أي شخص في أي زمان وأي مكان إلى المحاكمة، فكثيرًا ما قُدم الزعماء والمصلحون إلى المحاكمات بسبب الحقد، وبسبب مرض القلب، وهو ذات السبب الذي قُدم لأجله سقراط إلى المحاكمة فيما يقول: "فليس الأمر قاصرًا على مليتس وأنيتس، ولكنه الحقد الذي يأكل القلوب، ويغري الناس بتشويه السمعة، فكثيرًا ما أدى ذلك برجال إلى الموت، وكثيرًا ما سيقضي بالموت على رجال، فلست بحمد الله آخر هؤلاء".

لن يكون سقراط آخرهم، ولن ينتهي هذا النوع من المحاكمات إلى قيام الساعة؛ لأن أول جريمة تمت على الأرض كانت بدافع حقد أحد أولاد آدم، عليه السلام، على أخيه فقتله، كما وضَّح لنا القرآن هذه الحقيقة في عدة مشاهد خالدة.

على أية حال، تلك هي الأسباب الحقيقية التي سيق سقراط بسببها إلى الموت، فكيف تمت عملية الإعدام؟ وهل ساهم فيها سقراط بنصيب؟

ج- الإعدام:

بعد أن دافع سقراط عن قضيته العادلة أمام القضاة الذين يجهلون أخص أمور التقاضي والسياسة، كان الحكم المعد مسبقًا هو الإعدام.

لا أستطيع أن أتخيل أمام ركام ما قرأته عن سقراط صدق عملية الاقتراع على براءته أو إدانته، ولكنها عملية شكلية بحتة من لوازم السياسة كما يحدث في كل عصر وفي كل ظرف مشابه، مجرد شكليات، ليبينوا للحضور وللتاريخ وللأجيال القادمة أن المحاكمة تمت في جو كانت الديمقراطية هي السمة الغالبة فيه وتاليًا فلا يجوز اعتبار سقراط شهيدًا.. حتى لقب شهيد، أراد القضاة أن يسلبوه عن سقراط..

فقد كاد سقراط أن يبرأ لأن الحكم بإدانته لم يفز إلا بأكثرية 30 من 51 صوتًا، وكان من اليسير أن تصوت هذه الأكثرية في مصلحته لو أنه حاول أن يكسب عطف "المجمع الأثيني" بالكلام اللبق، أو لو أنه دافع عن نفسه دفاعًا جديًّا، ولكنه فعل عكس ذلك، فكان دفاعه آية من آيات السخرية، وخطابه كفيلًا بتأليب ذوي العقول الضيقة عليه.

ومع كامل احترامي لأصحاب رأي سخرية سقراط، أي سخرية تلك التي قام بها سقراط في المحاكمة؟ هل سخر سقراط من أحد؟

إن الشيء الوحيد الذي سخر منه سقراط هو الموت، فقد هزأ بالموت حتى الموت! إن سقراط كله يتلخص في مبادئه، وفي ممارسة تلك المبادئ النظرية عمليًا!!

لقد كانت الإرادة السياسية ممتلئة القلب غيظًا من سقراط، وكان الحكم الموجود في أدراج المحكمة قبل انعقاد المحاكمة يحمل كلمة "الإعدام"، فسواء سخر سقراط أم لم يسخر، وسواء دافع عن نفسه أم لم يدافع، كان مصيره حتمًا، لا إلى الموت، ولكن إلى الخلود، وتلك كانت هي الإرادة السياسية، "ولكن غوغائية المحكمين ورغبتهم في التخلص من هذا الرجل الذي أقلق راحتهم وكشف عن تفاهتهم، وبدا وكأنه يعلو بطبيعته السامية عن طبائعهم الأنانية، جعلتهم لا يلتفتون إلى هذا الدفاع الذي كان كفيلًا بتبرئته، ويصوتون ضده بأغلبية ضئيلة".

ويرد سقراط على كل مَن يتوهم أنه يلقي بيده إلى التهلكة قائلًا: "سيقول أحدكم ألا تخجل يا سقراط من حياة يغلب أن تؤدي بك إلى موت مباغت، وعلى ذلك أجيب في رفق، أنت مخطئ يا هذا، فإن كان الرجل خيرًا في ناحية منه فلا ينبغي أن يتدبر أمر حياته أو موته، ولا يجوز أن يهتم إلا بأمر واحد، وذلك أن يرى هل هو فيما يعمل مخطئ أم مصيب، وهل يقدم في حياته خيرًا أم شرًّا؟".

ثم يقبل سقراط الموت مؤثرًا له على الحياة فيقول: "فإني لأوثر خطتي التي رسمتها ولو أدت بي إلى الموت، على أن أصطنع خطتكم احتفاظًا بالحياة،

فلا يجوز لإنسان في ساحة الوغى أو أمام القانون أن يلتمس أي سبيل فرارًا من الموت".

ذاك هو سقراط!!

رجل يُقبل على الموت بنفس مطمئنة.. راضية.. دون خوف أو فزع أو جزع، أليست تلك الحياة المثالية قد جُسدت عمليًا بالفعل؟!

إنه يمكننا القول فعلًا إن حياة وفلسفة سقراط كما خلدها تلاميذه قد جسدت شخصية مثالية للفيلسوف الذي يقول ما يفعل، ويفعل ما يقول، ويرتبط لديه العلم بالسلوك.

إذن الإرادة السياسية هي التي اغتالت سقراط؛ لأنه لا يمكن تخيل اجتماع الاثنين أبدًا في وطن واحد، فسقراط هو العدو الأول والأوحد للساسة. أصحاب الجهل السياسي، وأصحاب البحث عن المصالح الشخصية فقط لا غير، يقول باركر: "وسواء وصف سقراط بأنه كان رجلًا مفكرًا أو لم يوصف بذلك فالمقطوع بصحته أنه مات شهيدًا لفكرته الذهنية عن السياسة، لقد وجَّه النقد إلى خصائص الديمقراطية الأثينية من لجوء إلى الاقتراع، ومن تشكيل للجمعية الوطنية ومن جهل اتصف به ساسة أثينا، ويبدو أنه نادى بأن معالجة السياسة تتطلب حذقًا فلسفيًا للمعرفة، ولا شك أن تعليمًا كهذا في دولة ديمقراطية، يُعتبر في أحسن الظروف عدم ولاء للدولة ويُعتبر في أسوأها خيانة عظمى".

على أية حال لقد مات سقراط، ولسان حاله يقول: "إنه لخير لك ألف مرة أن تكون سقراط تعيسًا شقيًا من أن تحيا خنزيرًا قانعًا سعيدًا"..

لكن السؤال الآن: هل أعدم سقراط نفسه؟!

هذا سؤال طرحه دودس، وستون، وبرنت، وغيرهم الكثير من ثقات الكتابات الفلسفية، وهم إنما يطرحون هذا السؤال بدافع واحد فقط، هو دفع أي تهمة من بعيد أو قريب عن سقراط!!

لكن بداية نرد على هذا السؤال بسؤال آخر أيضًا: كيف يكون سقراط أعدم نفسه وقد قام بكل ما ينبغي عليه القيام به على أكمل وجه أمام المحكمة؟

- لقد ذكرهم بما فعله لهم من خير ومحاولات إصلاح.

- ثم ذكرهم بأنه كان مواطنًا صالحًا وخدم في الجيش وثبت في المواقف الشداد.

- ثم رفض استعطافهم لما فيه من عار يلحق بهم وببلادهم أبد الدهر.

- ثم حاول إثناءهم عن ارتكاب جرم في حقه.

بالإجمال، لقد دافع عن قضيته دفاعًا عقليًا بحتًا لا عاطفة فيه، فكيف يكون أعدم نفسه؟!

قد يقول قائل إن سقراط أعدم نفسه عندما لم يهتم بالدفاع عن نفسه ولم يُحسن دفاعه، بل ورفض العبارات الخطابية!

ولو فعل سقراط غير ذلك لما كُتب له الخلود، لقد كان بإمكانه أن يدافع عن نفسه بطريقة الجدل السوفسطائي، تلك الوصمة التي وصمه بها أرستوفانيس، فلِمَ لم يستخدمها سقراط في دفاعه حتى يحظى بالبراءة؟؟ إنه لو فعل ذلك لهدم ذاته إلى الأبد، ولنزع عن نفسه الخلود، ولما وصلنا شيء مطلقًا عنه.

إنه رفض أن يستعمل ذات الأسلوب الذي هاجمه من قبل، رفض أن يشتري حياة رخيصة من وجهة نظره، بمبادئ عظيمة راسخة، رفض أن يدفع

خلـودًا ثمنًـا لفناء محقق، بالاختصار لقد صنع سـقراط ما هو أهل له وصنعت الديمقراطية ما هي أهل له، لم يكن يجدر بسـقراط سوى أن يقدم على الموت راضيًـا ومرحبًا، ولـم يكن يجدر بالقضاة إلا إعدامه وفقًا لإرادة سياسـية مملاة مسـبقًا عليهـم، ووفقًـا لجهل مطبـق يرتعون هـم أنفسـهم فيه، فكل قـام بدوره علـى أكمـل وجه، وكل سـار ناحية غايتـه دون توقف، وكل فعل مـا هو منوط بفعله، فسـقراط إلى الخلود، والقضاة إلى عار ملازم أبد الدهر، إذ سـيذكرهم الجميـع بلقب "مغتالي العقل"، ويا له من لقب! يكفي لأن يُلحق العار الأبدي بأصحابه!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، قد يُقال إن سقراط خرج عن كل معروف ومألوف، بما فيهم كبار الساسـة والأثرياء، بالاختصار، لقد فعل سقراط ما هو أهل له، يقول سـقراط: "ودعوكم من العار فيلوح لي أن في اسـترحام القاضي واسـتجدائه العفو في مكان إقناعه وإنبائـه بالنبأ الصحيح خطلًا، فليس واجب القاضـي أن يمنح العدالة منحًا، بل عليه أن يحكم حكمًا عادلًا، وقد أقسـم أن يحكـم وفـق القانـون دون أن يميـل مع الهـوى، ولا يجوز له ولا لنـا أن نتعود الحلف باطلًا، فلا أحسب في ذلك شيئًا من الورع والتقوى، فلا تريدوني إذن على أن أفعل ما أعده فجورًا وشينًا وخطلا".

ذاك هو ما يليق بسقراط، منهجًا وعقلًا وفطرة وحياة وموتًا.

ثـم تراه في موضع آخر يقول: "إنني رجل ككل الناس خُلقت من لحم ودم لا من خشـب وحجارة كما يقول هومر، ولي أسرة ولي أبناء عدادهم ثلاثة بلغ أحدهم الصبا ولا يزال الآخران طفلين، ومع ذلك فلن أسوق إليكم منهم أحدًا يسـتجديكم براءتي، ولِمَ لا؟ لست أصدر في ذلك عن اعتداد بنفسي أو ازدراء لكم، وسـواء خشيت الموت أم لـم أخشه فذاك شأن آخر لن أتحدث عنه الآن،

وإنما دفعني إلى ذلك عقيدة أن ذلك تصرف يضع من قدري ويحط من شأنكم ويصم الدولة بأسرها وصمة عار".

لو كان هذا الحديث سببًا في الاغتيال فما أعظمه من اغتيال! وما أعظمه من شموخ! وما أعظمه من إباء السماء في عليائها! وإباء العظماء الذين لا تغيرهم المواقف، ولا تفسد المادة أرواحهم.

وقد يُقال إن سقراط قد استفز القضاة عندما ظل راسخًا على موقفه ومصممًا على أنه لم يفسد الشباب ولم يكفر بآلهة الدولة!!

والسؤال الآن: هل يُطلب من المتهم أن يوافق المحكمة في جميع اتهاماتها حتى يكسب تعاطفهم معه، أو حتى لا يستفزهم؟!

بالمنطق السليم، سقراط دافع عن قضيته دفاعًا عقليًا لا مجال للعاطفة فيه، أما كون القضاة يبحثون عن البكاء والعويل حتى يتعاطفوا مع المتهم فهي ليست محكمة إذن ولكنها جلسة عرفية (وهذا أقل ما يُقال عنها)؛ لأن المحكمة تحكم بنص القانون، فكيف يكون للعواطف دخل في حكمها؟! وعلى فرض أن سقراط قام بهذا الدور العاطفي، وجاء بأبنائه وزوجته باكين مولولين، هل كان الموقف سيتغير؟!

إن الحكم كان موجودًا في أدراج المحكمة قبل انعقادها؟!

فالموت إذن بشرفٍ يكتب لصاحبه الخلود، أفضل من موت نراه خزيًا أبد الدهر.

ولكن قد يقول قائل: لقد بالغ سقراط في عناده للقضاة وكأنه يتحداهم في ثلاثة مواضع..

الأول: عندما لم يأبه بهم ولا بحكمهم ولا برأيهم فقال لهم في أقصى صور التحدي: "أيها الأثينيون! سواء لديَّ أصدعتم بما يأمركم به أنيتس أم فعلتم بغير ما يشير، وسواء أأصبت عندكم البراءة أم لم أُصبها، فاعلموا أني لن أبدل من أمري شيئًا ولو قضيتم عليَّ بالموت مرارًا ".

والثاني: عندما فضَّل الفلسفة على المحكمة ولم يعبأ بالمحكمة تمامًا، فقال مخاطبًا مواطنيه: "بني أثينا، كم كان سلوكي عجيبًا لو أنني عصيت الله فيما يأمرني به – كما أعتقد – بأن أؤدي رسالة الفلسفة بدراسة نفسي ودراسة الناس، وفررت مما كلفني به خشية الموت أو ما شئت من هول".

ويبدو سقراط وكأنه غير عابئ بالموت أو بالقضاة أو بالمحكمة أو بأي شيء إطلاقًا.

والثالث: عندما قال في تحدٍّ ما بعده من تحد: "لو قُلتم لي يا سقراط، إننا سنطلق سراحك هذه المرة ولن نأبه لأنيتس على شرط واحد، وذلك أن تكف عن البحث والتفكير فلا تعُد إليهما مرة أخرى، ولو شاهدناك تفعل ذلك أنزلنا بك الموت، إن كان هذا شرط إخلاء سبيلي أجبت بما يلي: أيها الأثينيون، أنا أحبكم وأمجدكم ولكني لا بد أن أُطيع الله أكثر مما أُطيعكم، فلن أمسك عن اتخاذ الفلسفة وتعليمها ما دمت حيًّا قويًّا، أسأل بطريقتي أيًّا صادفت بأسلوبي، وأهيب به قائلًا: ما لي أراك يا صاحبي تُعنى ما وسعتك العناية بجمع المال وصيانة الشرف، وذيوع الصيت، ولا تنشد من الحكمة والحق وتهذيب النفس إلا أقلها، فهي لا تصادف من عنايتك قليلًا ولا تزن عنك فتيلًا وأنت ابن أثينا مدينة العظمة والقوة والحكمة، ألا يُخجلك ذلك؟!".

هذه النصوص جميعها، قد تُظهر مدى تحدي سقراط للقضاة وعناده لهم، وهم أنفس بشرية يعتريهم ما يعتري البشر من ضيق وانفعال وغير ذلك، فلِمَ لا تكون هذه العبارات سببًا في إصدار الحكم بالإعدام؟!

وما يجعلنا نقف هنا مكتوفي الأيدي لا نستطيع أن نعطي رأيًا بهذا الخصوص هو أن أفلاطون لم يسجل الحكم أو حيثياته، وإنما اكتفى بأن يقول: "وهنا يصدر الحكم بالإعدام"، فلعله لو ذكر نص نطق الحكم وحيثياته ومبرراته القانونية لأراحنا كثيرًا عناء التخيل والتفكير في مثل هذه الأمور.

ولكن إذا لم يكن الحكم بالإعدام، فهل يطلب سقراط عقوبة أخف كأن يدفع غرامة مثلًا يتكفل بدفعها أصدقاؤه، أو يقترح عقوبة النفي؟! ولكن الشيء المتصور أن مَن يقول مثل هذا الرأي كأنه يريد أن يجبر سقراط على الاعتراف بذنب لم يفعله؛ لأنه لو قبل أيًّا من ذلك فمعناه أنه أذنب ويستوجب العقاب، ولكنه لم يذنب، ولم يُجرم في حق أحد، بل قدم الخير كله والإحسان كله إلى بني وطنه، إنه مع توافر أدنى مبادئ الإنسانية لم يكن يجدر به سوى الجزاء الذي قاله هو، وإن كان البعض يأخذه على أنه تهكم من المحكمة، إلا أنه كان حديثًا جديًّا كل الجد، منطقيًّا كل المنطق: "فماذا يحسن برجل فقير أحسن إليكم الصنيع، ويرغب في الفراغ ليتمكن من تعليمكم سوى أن يظل أبدًا في مجلس الدولة، وإنه أيها الأثينيون لأجدر بهذا الجزاء ممن كوفئ في أولمبياد في سباق العجلات سواء أكان يجر عجلته جوادان أو أكثر؛ لأنني فقير محتاج، وذاك غني عنده ما يسد منه العوز، على أنه لا يعطيكم إلا سعادة ظاهرية، أما أنا فأدلكم على الحقيقة، فإذا كان لي أن أُقدر لنفسي عقوبة عادلة ما قلت بغير البقاء في مجلس الدولة جزاءً أوفى".

ما أعدل هذا الجزاء لو أنهم أخذوا به!!

فسقراط جد في كل حرف نطق به، وليس كما يقول البعض، إنه هزل عند الجد، بل إن كلماته لتوزن بميزان من ذهب حقًّا، كلمات خرجت من قلب موجوع، وعقل مشغول ببني وطنه، يريد لهم سعادة حقيقية، وتعليمًا حقيقيًّا، وفضيلة راسخة، وقيمًا ثابتة..

ألم نتعلم أنه ليس من جزاءٍ للإحسان سوى الإحسان؟! فهل الإعدام هو الإحسان لهذا العقل الكبير والقلب العظيم والروح الطاهرة التي تهيم عشقًا ببني وطنها!!

وعلى الرغم من أن هذا الاغتيال كان مقصودًا، دُبِّر له بليل، إلا أن سقراط استقبله بصدر رحب، دون ضيق، ودون ضجر، فالموت خير، وليس بعد الموت للصالحين سوى النعيم المقيم، يقول سقراط: "وهأنذا الآن أجيبكم - أنتم يا قضاتي - فأبين لكم أن مَن عاش فيلسوفًا حقًّا، معه الحجة في أن ينعم بالًا إذا ما اقترب من الموت، وأنه قد يرجو أن يصيب في العالم الآخر بعد الموت أعظم الخير".

ثم إن الموت بقدر الله سبحانه وتعالى، وهذه النزعة الدينية في كل حرف يتحدث به سقراط، فلن يُصاب إنسان صالح أبدًا لا في حياته ولا بعد مماته، يقول سقراط: "فابتسموا إذن للموت أيها القضاة واعلموا علم اليقين أنه يستحيل على الرجل الصالح أن يُصاب بسوء، لا في حياته ولا بعد موته، فلن تهمله الآلهة، ولن تهمل ما يتصل به، كلا وليست ساعتي الآزفة قد جاءت بها المصادفة العمياء".

وكأن سقراط بكلماته هذه إنما يستقي مادتها من ألواح موسى عليه السلام، إذا اعتبرنا صدق الرواية التي تقول إن سقراط عاش بعد موسى بنحو مائتي سنة، أو كأنه كان يقرأ وحيًا يتنزل عليه هو شخصيًّا.

إن لديه ثباتًا مطلقًا، وحجة بالغة، ورضا تامًّا بما يُحاك حوله!! يمكننا القول إذن إن موت سقراط يُعد اغتيالًا للعقل في مهبط العقل، وانكسافًا للنور في بلد النور، ثم انهيارًا لبلدة عشقت الفلسفة اسمها أثينا، يقول وولف: "إن الحكم بالموت على المواطن الفيلسوف سقراط، كان كما لو أن الدولة الأثينية في القرن الخامس بقلب صفحة ذروتها، قد وقَّعت قرار موتها هي".

حقًّا، لقد وقَّعت أثينا قرار موتها عندما وقَّعت على قرار إعدام سقراط، وعندما قبلت هذا الاغتيال وباركته، لكن يبقى السؤال الآن: هل يمكن اعتبار سقراط شهيدًا لأجل عقيدة دينية وتصور إلهي معين؟!

ورغم أن الإجابة قد تبدو صعبة عن مثل هذا السؤال، إذ كثيرًا ما يواجه الأنبياء والمصلحون المشكلات التي لا سبيل إلى الخلاص منها، ولكن الأرجح على أية حال أن سقراط قد سيق إلى الإعدام عبر مقاومته لنظريات سياسية فاشلة، فالإعدام إذن قد أتى من باب السياسة وليس من باب الدين، وهذا ما يؤيده باركر بالقول: "ومن الخطأ اعتبار سقراط شهيدًا من شهداء الدين، لقد لقي سقراط حتفه لأنه اعتُبر خطرًا على نظام الدولة السياسي، ولكن بما أن هذا النظام كان مرتبطًا بالعبادة الرسمية لآلهة المدينة، فقد اتُّهم أيضًا بأنه عدو لهذه العبادة، أي أن التهمة الدينية كانت أشبه شيء بفكرة لاحقة أو نتيجة للتهمة السياسية؛ إذ إن اعتبارًا متعلقًا بمصلحة الدولة هو الذي أدى إلى محاكمة سقراط، والاعتبار نفسه هو الذي أدى إلى إدانته، وعلى موت سقراط لا حياته انعقد تفكير القرون وخيالها".

لكن هل يستحق سقراط الإعدام؟! ألم تشفع له دعوته إلى إصلاح العقل وتعديل مسار التفكير لمواطني أثينا؟! ألم يشفع له تعليمه المواطنين دون أجر؟! ألم تشفع له أخلاقه الشخصية وفضائله، وطهارة نفسه، وسمو روحه،

بشهادة معاصرية؟ يقول زينوفون: "إن كل مَن يعرف من أي نمط من الرجال كان سقراط، وكل مَن ينشد الفضيلة ما زال حتى اليوم يحزن لفقده أكثر من أي مروع آخر؛ لأنه كان أكبر عون في البحث عن الفضيلة، أما أنا فقد وصفته بما كان، تقيًّا بحيث لم يصنع شيئًا إلا بمشورة الآلهة، وعادلًا بحيث لم يُنزل أي أذى مهما صغر بأي إنسان، بل كان يُغدق على كل مَن يُعامله أعظم ضروب النفع، ضابطًا لنفسه بحيث لم يختر قط السبيل الأسهل عوضًا عن السبيل الأفضل، حكيمًا بحيث لم يخطئ قط في التمييز بين الأفضل والأسوأ ولم يحتج إلى مشير، بل كان يعتمد على نفسه في معرفتهما، حاذقًا في شرح هذه الأشياء وتحديدها وامتحان الآخرين وإقناعهم بخطئهم وحثهم على اقتباس الفضيلة والرفض، وهكذا كان عندي مثالًا للرجل العادل والسعيد حقًّا، أما إذا شك شاك فليقارن خلق غيره من الرجال بهذه المزايا ثم دعه يحكم لنفسه".

تلك هي شهادة أحد معاصريه العدول!!

ألا تشفع تلك الشهادة لسقراط عند بني قومه؟!

ومن ناحية أخرى، أثينا بلد الفن والعقل والحكمة، بلد هوميروس وهزيود وصولون والحكماء السبعة الذين يُشار إليهم بالإكبار، كيف تحول مصيرها لاغتيال العقل الذي زرعته هي بالأساس ونمته وأثمرته، لا شك أن السوفسطائيين يتحملون النصيب الأكبر من هذه الانحدارات الفكرية والأخلاقية.

ويبقى السؤال أيضًا: ألم يكن الأولى بسقراط أن يُخلد اليونانيون حياته لا أن يخلد بوفاته؟ ألم يكن سقراط أحق بالتكريم الذي ما بعده تكريم؛ لأنه حاول بناء بلده، وحاول رفعة وطنه، واستمات في المحاولة حتى الموت؟!

هل قست قلوب الأثينيين؟ هل تحجَّر قلب أثينا النابض بالحياة والمعرفة والفلسفة؟ ألم تمجد أثينا شهداء حروبها المتتالية؟ فلماذا لم تمجد سقراط إذن في حياته؟ ولعل بعض عقلاء أثينا الذين يذكرون كلمات بركليس في خطبته الجنائزية:

"لقد تحدثت إليكم الآن، طبقًا للقانون، بتلك الكلمات التي وجدتها صالحة للمناسبة، أما هؤلاء الذين جئنا لنواريهم التراب، فقد نالوا من تقديرنا ما يستحقون، وزيادة على ذلك، ستعول الدولة أطفالهم من الآن فصاعدًا، حتى يبلغوا طور الرجولة، وبهذا نكون قد توجنا الموتى وورثناهم بتاج ذي قيمة حقيقية، مكافأة لهم على ما قدمت أيديهم في هذا النضال؛ إذ إنه حيث تكون الجوائز التي تقدم مكافأة للفضيلة كبيرة، نجد المواطنين الصالحين، والآن بعد أن ذرفتم على الموتى ما هم أهل له من دموع، وبكى كل منكم موتاه، لكم أن تنصرفوا".

ومع كامل احترامي لدماء وأرواح الشهداء عبر التاريخ، تلك الدماء التي تروي الشقوق العطاش إلى الحرية والكرامة، تلك الدماء التي دومًا ما تُدفع وراء ستار الوطن، ومن باطنها الأطماع الشخصية والصراعات المتردية، لكن السؤال الآن إلى العقل الأثيني: إذا كنتم تمجدون أبطال المجد الحربي، ألم يكن الأولى بكم أن تمجدوا أبطال المجد الفكري؟!

إذا كنتم ترعون أبناء شهداء الحروب، أليس أبناء الفلاسفة، لا أقول أولى، ولكن أقول إن من حقهم تلك الرعاية أيضًا؟

إن المقارنة بين شهادة سقراط وشهادة جنود المعارك هي ذات المقارنة بين المجد الأثيني الفلسفي، والمجد الإسبرطي الحربي، فإسبرطة صنعت مجدًا

حربيًّا لم يدُم سوى سنوات قليلة، ثم سرعان ما طويت في صحائف النسيان، أما أثينا فقد صنعت مجدًا فكريًّا جعلها سيدة خالدة حتى اليوم، وجعل منها منارة للفكر ومنبعًا للفلسفة ومقصدًا لعشاق العقل.

بالاختصار، لقد كان سقراط أولى بالتمجيد، وأولى بالتكريم، وأولى بالمكافأة، وأولى بالدموع، وإن كان موته قد خلَّد ذكره، وخلد أثينا معه إلى الأبد، فللأثينيين أن يسعدوا لا أن يبكوا، فلعل القدر كتب على قلوبهم القسوة آنذاك، وكتب على سقراط ذاك المصير، ليخلد ذكر الاثنين، أثينا وسقراط.

لقد مات سقراط وانتهى الأمر، ولكن القضية لم تنتهِ بعد، قضية الصراع الفكري الذي ينتقل بدوره إلى صراع بين الحق والباطل، بين الشكل والمضمون، وهذا النوع من الصراع لن ينتهي إلا بانتهاء الحياة ذاتها؛ لأنه صراع كُتب حتمًا على هذا المخلوق أن يحياه، وأن يعيش نتائجه، وأن يُعاني ويلاته، تلك الويلات التي تتمثل في إفزاع الضمير، وسلب النوم من العيون، وتتسبب في أرق دائم، من ذاك النوع الذي طالعنا به ديوجين لاترسي، حين أعلن ندم الأثينيين الشديد على موت سقراط حتى إنهم انقلبوا ضد الذين رفعوا الدعوى ضده، فأعدموا مليتس وطردوا أنيتس إلى المنفى وأقاموا تمثالًا برونزيًّا لسقراط.

وعلى فرض صحة يقظة ضمائرهم، ولوم أنفسهم، وأرق رؤوسهم، فهل يغير ذلك من الاغتيال شيئًا!؟

ولعل مَن يقول: لقد كان ينبغي لسقراط أن يُدافع عن نفسه بغير تلك الطريقة التي دافع بها عن نفسه في المحاكمة!

وهل لو غيَّر سقراط الطريقة، كان سينجو من الموت؟!

الذين يقولون بذلك يجهلون حقيقة أن قرار الاغتيال كان قد وُقِّع من الحكومة الأثينية قبل انعقاد المحاكمة!!

ثم على فرض احتمالية تغير النتيجة بتغير نصوص الدفاع التي جاء بها سقراط، فما هي تلك النصوص التي كان بإمكانها تغيير سير القضية؟!

يذكر ستون أن سقراط كان بإمكانه أن يحتج بقوله: "إخواني المواطنين، أهل أثينا، أنتم لا تقاضونني من أجل شيء فعلته، بل من أجل شيء قلته وعلمته، أنتم تهددونني بالموت لأنكم تكرهون أدائي وتعاليمي، هذه محاكمة للأفكار وهذا شيء جديد في تاريخ مدينتنا"، بهذا المعنى تكون أثينا هي التي في قفص الاتهام وليس سقراط!!

أو كان يمكن لسقراط أن يخاطب العقل بعيدًا عن نص الدعوى كأن يقول لهم: "أيها الأثينيون، أتحاكمونني لأنني أوقظ العقل بداخلكم وأريد لكم معرفة حقيقة المعاني التي تتحدثون عنها؟"، أو كأن يخاطب العاطفة بقوله مثلًا: "أيها الأثينيون، لقد علّمت أولادكم دون مقابل، ودفعت روحي لأجلكم، وأهملت شئون نفسي وأولادي لأجل شئونكم وشئون أولادكم، أهكذا يكون جزائي؟".

هذا تخيل لما كان يمكن أن يقوله سقراط، ولكنه لم يُقَل، ولو قيل مثل هذا الكلام لما كُتب لسقراط الخلود، ولما تربع على عرش القلوب.

بالاختصار، لا يوجد دفاع عقلي منطقي أروع مما قاله سقراط، لقد كانت كل كلمة في سياقها، وكل حرف في مكانه، وكل تنهيدة خرجت من قلبه، إنما خرجت في أوانها ومناسبتها، ولو زيد حرف أو نقص عما قاله سقراط لألقى بذلك ظلال الشك على فلسفته برمتها.

ثـم إن الذيـن يجهدون أنفسـهم بأن سـقراط كان يمكن أن يغيـر من موقفه بعـض الشـيء ليحظـى بالبراءة، لـم يدركوا عظمة مـا فعله سـقراط بعد النطق بالحكم بالإعدام.

لقـد فعل سـقراط شـيئًا، لـو أنه حدث فـي بلد قلوب أهله أشـد قسـوة من الحجارة، لأصدروا عفوًا فوريًّا عنه، ولافتدوه بأرواحهم ومهج قلوبهم.

ذاك الموقف هو طاعته للقانون ورفضه الهرب، وهو موقف الخلود، الذي جعل كيركجار يتغنى لسقراط قائلًا:

"سـقراط.. سـقراط.. سـقراط.. لو هتف لسـاني باسـمك مائة مـرة.. ما وفيتك حقك أبدًا".

سادسًا: الموقف الأخير

المكان: سجن سقراط.

الزمان: قبل الشهادة بأيام، وتحديدًا قبل أوبة السفينة المقدسة من صونيوم.

الحدث: عرض خطة للهرب من هذا الحكم الظالم على سقراط.

المنفذون: أقريطون وأصدقاء سقراط.

بعد أن حُكم بالموت على سقراط، كان عليه أن ينتظر في سجنه شهرًا حرامًا حرّم فيه الأثينيون القتل، تذهب فيه السفينة المقدسة إلى صونيوم ثم تعود، وقد فكر أصدقاء سقراط في أي حيلة ينقذون بها سقراط، هذا الرجل الذي حوكم ظلمًا، ومات غدرًا، ولم يُبدِ أي اعتراض، ولم تظهر عليه علامات القلق أو الاضطراب.

لقد جاءه أقريطون، ولعل أفلاطون أفلح في اختيار أقريطون لهذا المشهد - إذا ما اعتبرنا أن أفلاطون هو الذي يختار شخصيات محاوراته على غير الشخصيات الحقيقية - وذلك لكبر سنه وحكمته وعرضه القضية على سقراط بطريقة منطقية وسهلة التنفيذ، إنه وأصدقاء سقراط قد أعدوا خطة لتهريب سقراط، ولا يتوقف تنفيذها إلا على قبول سقراط فقط، ولكن سقراط يرد عرضه برفق ولين وتواضع ومنطق أيضًا، حيث لم تذهب المحنة بعقله، ولم

توقفه عن التفكير، فنراه يقول لأقريطون في رفق: "إذن فانظر إلى الأمر على هذا الوجه، هبني هممت بالأبوق، فجاءت إليَّ القوانين والحكومة تُسائلني: حدثنا يا سقراط، ماذا أنت فاعل؟ أتريد بفعلة منك أن تهز كياننا، أعني القوانين والدولة بأسرها بمقدار ما هي في شخصك ماثلة؟ هل تتصور دولة ليس لأحكام قانونها قوة ولا تجد من الأفراد إلا نبذًا واطراحًا أن تقوم قائمتها فلا تندك من أساسها؟".

حقًّا، هل يمكن لدولة أن تقوم قائمتها بدون القانون؟!

وكأن سقراط، لم يكن فيلسوفًا أخلاقيًّا فقط، بل كان فيلسوفًا في القانون أيضًا!! ثم يزيد موقفه وضوحًا، بأن المواطن طالما اختار المقام بوطنه فعليه أن يرضى بقوانينه، ليس ذلك فقط، بل وأن يدافع عن تلك القوانين أيضًا، ويتصور سقراط القوانين تخاطبه بقولها: "أما ذلك الذي عركنا فعرف كيف نقيم العدل وكيف ندير الدولة، ثم رضي بعد ذلك المقام بيننا، فهو بذلك قد تعاقد ضمنًا على أنه لا بد فاعل ما نحن به آمرون، فمَن عصانا، ونحن ما نحن فقد أخطأ مرات ثلاثًا: الأولى أنه عصى والديه بعصيانه إيانا، والثانية أننا نحن الذين رسمنا له طريق نشأته، والثالثة أنه قطع معنا على نفسه عهدًا أنه سيطيع أوامرنا، فلا هو أطاعها، ولا هو أقنعنا بأنها خاطئة، ونحن لا نفرضها عليه فرضًا غشومًا، ولكنا نخيره، فإما طاعتنا، وإما إقناعنا، هذا ما قدمناه إليه، وهذا ما رفضه جميعًا".

ويؤكد باركر هذا المعنى عند سقراط حيث يذهب إلى أن حياة سقراط كانت تتميز بعاملين اثنين هما: الثبات في أداء الواجب المدني، والإصرار على رفض تخطي القانون المدني، كما قيل أيضًا فيما هو أبعد من ذلك، إن

سقراط وإن كان قد تسامى عن إحضار أبنائه واستجداء براءته من المحكمة، فإن ذلك لم يكن إلا للحفاظ على القوانين وعدم وضع القضاة تحت أي تأثير، كما أنه من شدة ولائه لبلده الذي طالما دافع عنه جنديًا، ولقنه العلم والفضيلة وأرسى دعائم القيم معلمًا، لا يريد اليوم أن يُلطخ هذا التاريخ الناصع بهذا السلوك المشين".

ثم يتخيل سقراط القوانين وهي تخاطبه قائلة له: "أصغِ إلينا إذن يا سقراط، نحن الذين أنشأناك، لا تفكر في الحياة والأبناء أولًا، وفي العدل آخرًا، بل فكر في العدل أولًا، وارجُ أن تصيب البراءة عند ولاة العالم الأدنى، فإن فعلت ما يأمرك به أقريطون، فلن تكون أنت ولا مَن يتعلق بك كائنًا مَن كان، أسعد أو أقدس أو أعدل في هذه الحياة ولا في أية حياة أخرى، فارحل الآن بريئًا، مجاهدًا لا فاعلًا للرذيلة، ضحية الناس لا ضحية القوانين، أما إن صممت أن ترد الشر بالشر والضر بالضر، ناقضًا ما قطعته أمامنا على نفسك من عهود ومواثيق مسيئًا إلى أولئك الذين ينبغي ألا يمسهم من إساءتك إلا أقلها، أعني نفسك وأصدقاءك ووطنك، ونحن فسننقم عليك ما دمت حيًا، وستستقبلك قوانين العالم الأدنى وهي إخوتنا، عدوًّا لأنها ستعلم أنك لم تدخر وسعًا في هدمنا، أصغِ إلينا لا إلى أقريطون".

لقد بذل أقريطون كل ما بوسعه لأجل إقناع سقراط بالهرب، ذاك الهرب الذي لن يكلف أصدقاءه سوى القليل، فرشوة السجان كفيلة بذلك وقد قالها أقريطون صراحة: "ولي فضل عليه"، أي أنه يدفع للسجان كي يدخل ليجلس مع سقراط، وفضلًا عن أن سقراط صاحب قضية عادلة، ولن يكون فراره من السجن إلا قطعًا للطريق أمام الظالمين ليس إلا، أي أن هذا الهرب لن يُعد أبدًا فرارًا من القانون، ولا خروجًا على الدولة؛ لأنه حوكم ظلمًا، وربما كان

الهـرب هـو الحل الوحيد الذي ربمـا ترتضيه الدولة وتباركه، بـل وربما تريده وتصر عليه، حتى لا تقع فيما بعد في عذاب الضمير.

ولكن حتى هذا الحل رفضه سـقراط، رفض الخروج قيد أنملة عن مبادئ وشـموخ سـقراط، رفض مجرد أن يُقال: "إن هناك مواطنًا عاقًّا لقوانين بلده فرَّ هاربًا من تنفيذ القانون".

وعلـى الرغـم من أن هذا الحل ربمـا ترحب به الدولة وتيسـر حدوثه حالة وقـع، وعلـى الرغم من أن حالة سـقراط لـم تكن الأولى ولن تكـون الأخيرة، حيث اتهم بعض الفلاسـفة فيما سبق، حيث سـيق أنكساجوراس إلى الإعدام بتهمة الإلحاد؛ لأنه تجرأ على تجريد الشـمس والقمر من القداسـة وقال إنهما حجران مشتعلان يضيئان الكون، ولكنه فر هاربًا خارج البلاد.

وسبق أيضًا وأن حوكم بروتاجوراس، وأُحرقت كتبه، وترك أثينا وفر هاربًا، ولم يذكر لنا أحد المؤرخين أن أحدًا من الفلاسفة الذين هربوا من الإعدام قد تعقبتهم الدولة أو أسـاء إليهم أحد، فلماذا لا يقبل سـقراط، وسـابقوه في هذا المضمار فلاسفة وليسوا عوامًّا؟!

ولمـاذا لم يقبـل أن يحيا، على أرض غير وطنه، لينفـع بعلمه ومنهجه قدرًا أكبر من أبناء الجنس البشري؟!

لقـد فنَّد سـقراط تلك الدعوة تفنيـدًا عقليًّا منطقيًّا بحتًـا يمكننا تلخيصه في عبـارة واحدة مؤداها: "لا ينبغي لامرئ عاقل أن يخرج عن طاعة القانون حتى لو كان القانون ظالمًا".

تلـك هـي الرسـالة التـي أراد سـقراط توصيلهـا إلـى عمـوم أبنـاء الجنس البشري.

وفضلًا عن ذلك، فقد عد هذا الهرب عارًا على وطنه وسوء سمعة له، ثم إن الوحي يقول له بأنه مقدم على خير لا على شر؛ لذا ينبغي طاعة الوحي لأنه طاعة لله، فنراه يقول لأقريطون: "ذرني إذن أتبع ما توحي به إليَّ إرادة الله".

بالاختصار، لقد فعل أقريطون ما يريح ضميره، ويرحم نفسه من لوم داخلي حتمًا سيحدث، بينما فعل سقراط ما هو أهل له، وما يتفق مع مبادئه وثباته عليها حتى لو فقد في سبيلها حياته، "لقد قبل سقراط الموت راضيًا ليظل المثل الأعلى الحي للمواطن الأثيني الذي يحترم القانون المدني لمدينته، وليُبرهن للجميع على أن الفيلسوف الحق حينما يدرك الحق والخير لا يمكنه تحت أي ظرف أن يتنازل عنه مهما كان الثمن، حتى لو كان هذا الثمن هو الحفاظ على حياته ذاتها!".

لقد وضعت محاورة أقريطون سقراط أمام اختبارين أحدهما أشد بلاءً من الآخر، الأول هل يقدم سقراط الحياة على الواجب (الموت)؟ أو بمعنى آخر هل يقدم سقراط الجسد على الروح، بأن يقبل الفرار طاعة للجسد وإزهاقًا للضمير؟!

ذاك بحق اختبار عسير، ولكن سقراط لم يجعل منه اختبارًا بالأساس، إذ لا توجد عنده أدنى مفاضلة بين طاعة للضمير وبين خروج عليه، حتى مجرد المقارنة لم يقبلها سقراط.

أما الاختبار الثاني، فهو لكل مَن يقرأ أقريطون، ماذا تفعل لو كنت مكان سقراط؟ هل تقدم الحياة على الموت فداءً للمبدأ؟

وهل تفر من السجن لأن الحكم ظالم؟ وهي حجة قوية تكفي تبريرًا للفعل ذاته! إذن الضمير الإنساني في اختبار دائم وعراك متصل!

لكن تبقى محاورة القوانين هي أروع دفاع عن القوانين عرفه التاريخ، بل وهي أروع إجابة على أشق سؤال في فلسفة القانون على مدار التاريخ، هل يجوز للمظلوم أن يهرب من القانون؟!

هذه المعضلة شغلت أذهان مفكري وفلاسفة القانون على مدار التاريخ، ولكن سقراط قدم لها حلًّا منذ القدم، حلًّا يزيد هذه المشكلة تعقيدًا، لقد تمثل حل سقراط في العبارة التالية: "ما ينبغي أن نرد الظلم بالظلم ولا أن ننتهك المبدأ مع أولئك الذين انتهكوه".

معنى ذلك، أن الواجب مقدم على الممكن، بل يصبح الواجب فرضًا في هذه الحالة. ولقد قيل إن الذي دفع سقراط إلى حل هذه المعضلة على هذا النحو هو سنه التي كادت تربو على السبعين، فهو إذن لن يعيش أكثر من ذلك إلا قليلًا، وربما حسبها بينه وبين نفسه، فكان قراره التضحية بسنوات قليلة جدًّا من عمره لأجل خلود أبد الدهر!!

ربما يكون هذا الرأي به شيء من الصواب من منظور عقلي بحت، ولكن الذي يفهم نفسية سقراط عبر تلك الصفحات يدرك أن هذا فرض عقلي بحت مجرد عن كل افتراضات الحقيقة وليس له أدنى درجات الصحة أو الصواب.

إن مسألة السن لن تغير من الموقف شيئًا، ذلك أن القضية في روع سقراط قضية مبدأ بالأساس، وليست قضية حياة نفس أو موت جسد، ليس ذلك على الإطلاق، ولكنها قضية حياة مبدأ يسير عليه بنو البشر، أو موت مبدأ يقضي عليه سقراط ويتبع سنته باقي البشر، تلك هي القضية تمامًا في روع سقراط، ولو كان عمره عشرين عامًا أثناء تلك المحنة لما قبل بغير الموت طاعة للقانون وفداءً للدولة، فالسن إذن لا تؤثر في تلك القضية لا من قريب ولا من بعيد، ولكنها قضية مبدأ أولًا وآخرًا.

يبقى التساؤل الآن، لأولئك الذين أبدعوا في تصور المحاكمة وما كان ينبغي لسقراط أن يقوله أو يفعله، وما يتعلق بذلك من قضايا وأحداث!!

ألا يكفي هذا الموقف ليغير الأثينيون موقفهم من فيلسوفهم العظيم سقراط؟! أما كان يجب عليهم أن يفتدوه بأرواحهم ويعلموا أنهم حقًّا أخطئوا في حقه، وفي حق أنفسهم، وفي حق وطنهم؟!

ألم تمتلئ أركان أثينا بهذا الحوار، وأصبح الجميع يرددونه بوعي أو دون وعي؟!

فأين كانت عقولهم إذن؟ وأين كانت ضمائرهم؟ وأين كانت قلوبهم؟! أما تفكرت عقولهم وأدركوا خطأهم ليصلحوا ما فعلوا؟!

أما استيقظت ضمائرهم، عندما رأوا ضمير سقراط الحي يرفض الحياة مع الخيانة للقوانين وللمدينة؟!

أما سارت قلوبهم لتلتقط تلك المشاهد فيعودوا إلى صوابهم!!

لقد أبت نفوسهم، وأبت ضمائرهم، وأبت عقولهم، إلا أن يُعدم سقراط!!

ولو كان هناك شيء قادر على تغيير مسار تلك القضية لكانت روعة محاورة أقريطون كفيلة بهذا التغيير، وكأن يقظة ضمير سقراط لم توقظ ضمائر أثينا، وطهارة قلب سقراط لم تطهر قلوب الأثينيين، وروعة صبر سقراط، لم تقلل من حدة بطش أثينا، فكان لا بد من الموت، وأن يظل الموقف كما هو دون تغيير، ليُكتب سقراط بماء الخلود إلى يوم القيامة.

يبقى التساؤل الأخير إذن: هل يُعد سقراط بطاعته تلك للقانون قد شارك بطريقة أو بأخرى في اغتيال نفسه؟!

نعم قد يُقال إن الأثينيين هم مَن أعدموا سقراط، هذا هو الظاهر!! أثينا بلد الفن والفلسفة أعدمت العقل!!

ولكن الحقيقة غير ذلك بالمرة؛ لأن الذي أعدم سقراط كان شيئًا آخر، من نوعٍ آخر، هو نفس الشيء الذي أعدم من قبل المفكرين والأنبياء والدعاة والمصلحين على مدار تاريخ الجنس البشري الحافل بالبطولات والمليء بالرجال الذين حقًّا يطلق عليهم لفظ رجال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، ليس الإيمان قاصرًا على رسالة محمد، إذ لم يكن قد بُعث بعد، ولكنه الإيمان بمبادئ الإنسانية، الإيمان بالروح الإنسانية.. ذاك الإيمان الذي يصنع الخلود لأصحابه!!

إن الرؤوس التي قُدمت للقصاص، نفسًا بنفسٍ لا تبلغ معشار ما قُدم من رؤوس لأجل الحق والخير والعدل والفضيلة!!

فقد قدمت البشرية المعذبة على مدار تاريخها الكثير من الشهداء الذين قدموا أرواحهم بنفوس مطمئنة راضية لأجل إسعاد البشرية، أو لأجل انتشالهم من وحل ما يعيشون، وما يصنعون، وما يُسيئون!!

قدموا تلك الأرواح والمهج ولسان حالهم يقول: "يا ليت لنا مائة ألف نفس تُزهق لأجل إسعاد البشرية".

تاريخ طويل، مليء بالفخر، كل الفخر لهذا المخلوق الذي كرمه الله بالعقل وشرفه بالعمل وأسجد له ملائكته وفضله على كثير ممَّن خلق تفضيلًا.

تاريخ يدعو إلى الصبر والمثابرة، فمهما كثر شجر الفساد ونمى فإن المصير إلى الصلاح، ومهما بلغت جذوات الفتن استعارها فإن المآل إلى السلام.

نعم، لا بد وأن يأتي يوم على هذا الجنس البشري ليفيق من غفلته ويذكر تلك الدماء التي جاد بها الآباء لأجل الحق والعدل والخير والسلام.

سيذكرون حتمًا هابيل، عندما عفا عن أخيه ولم يبسط إليه يد السوء. سيذكرون حتمًا مواكب الشهداء المتتالية على مدار الجنس البشري، والذين يأتي سقراط ضمن أعظمهم.. حتمًا هو ليس أولهم، فهابيل أولهم.. وحتمًا ليس أعظمهم.. فالحسين أعظمهم.

ولكنه يأتي ضمن موكب الشرف، الذي صنعه بأخلاقه ورواه بدمائه وأثمره بخلود روحه.

إن الذي قتل سقراط هو أخلاق سقراط، ورجولة سقراط، وليس شيئًا آخر غير ذلك.

أخلاقه رفضت الهرب من السجن، أو أن يخرج عن الأطر العامة لمبادئه بأن يرد الشر بالشر.. ورجولته رفضت أن يأتي بأبنائه وزوجته ليسترحموا القضاة، في وقت كان يفعل فيه مشاهير وساسة أثينا هذا الصنيع عندما يلم بهم ما ألمَّ بسقراط دون أن يأخذ أحد ذلك عليهم، هي إذن رجولة لا مثيل لها!!

وهي إذن أخلاق ما أعظمها وأروعها!! إجمالًا، لم يُقتل سقراط بأيدي الأثينيين كما يظن البعض!! ولكنه بطريقة أو بأخرى قتل نفسه حقًّا!!

قتلها برجولته وأخلاقه، واللتين لا بد للمرء منهما ولو قُتل ألف ألف مرة!!

ولو اعتدى سقراط على تلك الأخلاق، وانتهك تلك الرجولة، لما كان ثمة سقراط ولما كان خلود سقراط.. ولكنه قتل، أو إن شئت الدقة، فلتقل اغتيل،

وما أعظمه من قتل، وما أروعه من اغتيال عندما يُغتال المرء بسبب رجولته أو بسبب أخلاقه، أو بسبب ثباته على مبادئه، فهو إذن يختار الخلود على الفناء، وهو يستحق هذا الخلود وما أعظمه من خلود!!

خلود الذكر في الدنيا، وخلود أرواح الشهداء بعد الممات، فما أعظم الصفقة التي أبرمها سقراط، وما أروع ما صنع!!

قائمة المصادر والمراجع

[أ] المصادر العربية:

1- أفلاطـون: محـاورات أفلاطـون [أوطيفـرون - الدفـاع - أقريطـون - فيـدون]، ترجمـة د. زكـي نجيـب محمـود، مطبعـة لجنـة التأليـف والترجمة والنشر، القاهرة، 1966م.

2- أفلاطون: محاورة المأدبة، ترجمة وليم الميري، دار المعارف، القاهرة، 1970م.

3- أفلاطـون: محاورة الجمهورية، ترجمة ودراسـة د. فـؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

4- أفلاطـون: محـاورة بروتاجـوراس، ترجمهـا إلـى الإنجليزيـة بنيامين جويت، تعريب محمـد كمال الدين علي، مراجعة د. محمد صقر خفاجة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م.

5- أفلاطـون: محـاورة ثياتيتـوس، ترجمـة د. أميـرة حلمـي مطـر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.

6- أفلاطـون: محاورة فايدروس، ترجمة د. أميرة حلمي مطر، دار الثقافة، القاهرة، بدون تاريخ.

[ب] المصادر الأجنبية:

1- Aristophanes: The clouds, trans by: R.levin, in Book (the question of sorates).

2- Plato: Axiochus, trans by: G.Burges "the works of plato "vol I, George Bell and sons , london , 1902.

3- Xenophon: Memorabilia of socrates, tran by: R.J.S. watson, in "socrat discourses "J.M.Dent 8, son LTD, london, 1951.

ثانيًا- المراجع:

[أ] المراجع العربية والمترجمة:

1- أرسطو: السياسة، ترجمه إلى الفرنسية بارتلمي سانتهيلر، تعريب د. أحمد لطفي السيد - مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1947م.

2- أرسطو: دستور الأثينيين، ترجمة د. طه حسين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1914م.

3- النشار (د. مصطفى حسن): تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م.

4- النشار (د. مصطفى حسن): فلاسفة أيقظوا العالم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988م.

5- النشار (د. مصطفى حسن): مدخل إلى الفلسفة السياسية والاجتماعية، دار المسيرة، عمّان، 2012م.

6- الخولي (د. هدى): الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون، جامعة القاهرة، القاهرة، 2012م.

7- الناصري (د. سيد أحمد): الإغريق تاريخهم وحضارتهم، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1977م.

8- الأهواني (د. أحمد فؤاد): فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، القاهرة، 1954م.

9- اللاثرسي (ديوجينس): حياة مشاهير الفلاسفة، ج1، ترجمة وتقديم د. إمام عبد الفتاح إمام، راجعه على الأصل اليوناني محمد حمدي إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2006م.

10- إبراهيم (د. زكريا): مشكلة الفلسفة، ضمن سلسلة مشكلات فلسفية، مكتبة مصر، القاهرة، ب ت.

11- باركر (آرنست): النظرية السياسية عند اليونان، ج1، ترجمة لويس إسكندر، مراجعة د. محمد سليم سالم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1966م.

12- بدوي (د. عبد الرحمن): ربيع الفكر اليوناني، ط5، وكالة المطبوعات، الكويت، 1979م.

13- بيرنز (دليل): المثل السياسية، ترجمة لويس إسكندر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1964م.

14- توماس (هنري): أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم؟، ترجمة متري أمين، مراجعة د. زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، 1964م.

15- تيلر (ألفرد إدوارد): سقراط، ترجمة محمد بكير خليل، مراجعة د. زكي نجيب محمود - مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1962م.

16- جونـز: الديمقراطيـة الأثينية، ترجمة عبد المحسـن الخشـاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

17- ديورانت (ول): قصة الفلسفة (من أفلاطون إلى جون ديوي)، ترجمة د. فتـح اللـه محمـد المشعشـع، منشـورات مكتبـة المعـارف، بيـروت، ط4، 1979م.

18- سـتيس (وولتر): تاريخ الفلسـفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة، القاهرة، 1984م.

19- كرم (د. يوسـف): تاريخ الفلسـفة اليونانية، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1953م.

20- زيمرن (ألفرد): الحياة العامة اليونانية، ترجمة عبد المحسـن خشاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002م.

21- سـارتون (جـورج): تاريـخ العلـم، ج2، ترجمـة لفيـف مـن العلماء، إشراف د. إبراهيم بيومي مدكور، دار المعارف، القاهرة، ب ت.

22- سـتون (آي إف): محاكمـة سـقراط، ترجمة نسـيم مجلـي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.

23- سباسـن (جـورج): تطور الفكر السياسـي، ج1، ترجمة حسـن جلال العروسي، دار المعارف، القاهرة، 1954م.

24- كوبلستون (فريدريك): تاريخ الفلسفة، المجلد الأول (اليونان والرومان) ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.

25- كيسـيديس (ثيوكاديس): سقراط، تعريب طلال السهيل، دار الفارابي للنشر، ط1، بيروت، 1987م.

26- مطر (د. أميرة حلمي): الفلسفة عند اليونان، ط5، دار الثقافة، القاهرة، 1986م.

27- مكاوي (د. عبد الغفار): لِمَ الفلسفة؟، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1981م.

28- مـكاوي (د. فـوزي): تاريـخ العلـم الإغريقـي وحضارتـه، المكتـب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 1999م.

29- ميس (كورا): سقراط.. الرجل الذي جرؤ على السؤال، ترجمة محمد محمود، تقديم حسن جلال العروسي، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1956م.

30- مراد (د. محمود): الحرية في الفلسفة اليونانية، دار الوفاء، الإسكندرية، 1999م.

31- مرحبـا (د. محمـد عبد الرحمن): من الفلسـفة اليونانية إلى الفلسـفة الإسلامية، منشورات عويدات، ط3، بيروت، 1982م.

32- ممدوح (د. محمد): فلسفة القانون عند اليونان والرومان، دار الوراق للطباعة والنشر، عمَّان، 2014م.

33- ممدوح (د. محمد): فلسفة المقاومة في السياسة والقانون، دار روافد وابن النديم، بيروت، 2015م.

34- ممدوح (د. محمد): سـر السؤال السـقراطي: بحث منشور في مجلة تطوير، جامعة سعيدة، الجزائر، 2014م.

35- وورنر (ريكس): فلاسـفة الإغريق، ترجمة عبد الحميد سـليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م.

36- وولـف (فرانسـيس): سـقراط، ترجمـة منصـور القاضي، المؤسسـة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993م.

37- وافـي (د. علـي عبد الواحد): الأدب اليونانـي القديم، دار المعارف، القاهرة، 1960م.

[ب] المراجع الأجنبية:

38- Bony (M): The Medivel philosophy, Harvard Univrtsity press, Macmillan, 1964.

39- Burnet (J): Greek Philosophy , thals to plato, Macmillan, London, 1968.

40- Cicero: De finibus , trans by: H.Rackham, Harvard University press, 1994.

41- Dodds (E.R): The Greek and the lrrational, University of California press, Berkeley , Los Anglos 1959.

42- Fuller (B.A.G): A history of philosophy. Oxford University. publishing co, colatta, 1955.

43- Guthrie (w.k.c): The Sophists, University press, Cambridge, New York , 1971.

44- Plutarch: Moralis, Translated into English by W.C. Helmbold, Harvard University press, London , 1993.

45- Seron (H.M): Socrat, the Great, Macmillan , cottd, London, 1959.

46- Zeller (E): Outlines of The history of Greek philosophy, trans by: L.R. plamet, 13 ed , Dover pubications inc, New york , 1980.

فهرس

صفحة